

ابن حبيب و مشاركته في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الغرب الاسلامي

للأستاذ إدريس أجويل

تمهيد:

يعتبر أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي الإلبيري من أبرز رجالات الفقه المالكي، عرف باجتهاداته وآرائه الفقهية، ساهم بكتابه الواضحة في تأسيس الفقه المالكي على قواعد وأصول، وهو ينتمي إلى مرحلة حساسة في تاريخ الثقافة الإسلامية، وهي مرحلة القرن الثالث الهجري؛ هذا القرن الذي دونت فيه العلوم الإسلامية على اختلاف مشاربها، من فقه، وحديث، وسيرة... وظهرت فيه أمهات كتب اللغة والتاريخ، وتميز بعصر ظهور كبار المجتهدين في جميع المذاهب الفقهية. ويعتبر ابن حبيب واحدا من المجتهدين الكبار في المذهب المالكي، وكذلك سنسلط الضوء في موضوعنا هذا على المحاور الآتية:

المحور الأول : شخصية ابن حبيب

المحور الثاني: أصول فقه ابن حبيب

المحور الثالث: خصائص فقه ابن حبيب

المحور الرابع: المجال التطبيقي في فقه ابن حبيب

المحور الاول : شخصية ابن حبيب

شخصية أي إنسان ترتبط بجميع العوامل والمؤثرات التي تحفظ

بحياته من الولادة إلى الوفاة، وشخصية ابن حبيب هي شخصية العالم العابد الذي قضى حياته في خدمة العلم تدريساً وتصنيفاً؛ فتميزت شخصيته بالاطلاع الواسع، والصلابة في الرأي.

أولاً: نشأته

لقد نشأ هذا العالم الفذ في الأندلس التي كانت موئلاً للعلماء يقصدونها من كل حذب وصوب. كانت نشأته في وسط يسوده العلم والعلماء قال محمد بن حارث الخشني: أصل عبد الملك بن حبيب من كورة (1) البيرة (2) ثم لزم قرطبة، وطلب العلم عند رجالها، أرسله والده إلى قرطبة (3) لطلب العلم، وكتب له كتاباً إلى يحيى بن يحيى الليثي وسعيد بن حسان (4) وقال القاضي عياض في ترجمته: «كان أصلهم من طليطلة، وانتقل جده سليمان إلى قرطبة، وانتقل أبوه حبيب وإخوته في فتنة الربرض (4م) إلى البيرة (5)، وقال ابن الخطيب: «أصله من قرية قورت وقيل حصن واط من خارج غرناطة، وبها نشأ، وقرأ» (6).

ومهما يكن من خلاف بين المترجمين في نشأة ابن حبيب، فقد نشأ وترعرع جل حياته في مدينة قرطبة التي كانت تعقد بمساجدها حلقات

(1) الكورة : الإقليم

(2) البيرة : مدينة جليلة القدر.. توجد بين القبلية والشرق من قرطبة، الروض المعطار ص: 28†

(3) قرطبة: مدينة عظيمة بالأندلس، مراصد الاطلاع 1078

(4) انظر: أخبار الفقهاء والمحدثين ص: 245-246

(5) الربرض: في الأصل اسم لما يأوي إليه الرجل وغيره، وهي محلة كانت متصلة بقصر الأمير تقع على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير في مقابلة قرطبة، وملخص واقعة الربرض أن أهلها ثاروا على الأمير الحكم الأموي وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب الإمام مالك؛ فكانت النصر للحم، فلما ظفر بالنصر قتل من شاء وأجلى من بقي إلى البلاد البعيدة، وأوصى ألا يسكن أحد بعده في هذه البلاد، وكانت الربرض تزدهم بأخلاق من الناس من أهل الحرف المختلفة، ومن طلبة العلم، وكانت هذه الواقعة سنة 202هـ. انظر عن هذه الواقعة: نهاية الأرب ص: 64، تاريخ ابن خلدون 4/126 معجم البلدان

26/3، نفح الطيب 5/15، أخبار مجموعة ص: 114، مجلة المناهل عدد 1976/5 ص: 298.

(5) المدارك 4/123.

(6) الاحاطة 3/548.

العلم، ففسح له المجال ليأخذ من معين فقهاءها ويقتفي أثرهم في الرسوخ والترزود بمختلف أنواع العلوم.

لذا، كانت نشأته من البداية الى النهاية نشأة يكتنفها العلم في جميع أطوار حياته؛ فقد تضرع من الفقه المالكي وبلغ فيه من علو المنزلة وسمو المكانة ما جعله يلقب بعالم الأندلس، وتصدر منصب المشاورة والافتاء مع فطاحل فقهاءها، أمثال يحيى بن يحيى الليثي، وأصبع بن جليل، وعبد الأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى بن دينار وغيرهم كثير.

ثانيا : اسمه ونسبه

هو ابو مروان (7) عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة (7م) بن عباس بن مرداس (8) السلمي الإلبيري، فهو ينتسب إلى قبيلة «سليم» (9)، وهم سليم بن منصور بن غلرمة بن حفصة بن قيس من العرب الذين استوطنوا الأندلس (10)، فهو من العرب العدنانيين ينتسب إلى بني سليم، وقبيلة «بني سليم» منهم الصحابي الجليل عباس بن مرداس السلمي (11) صاحب رسول الله ﷺ (11م).

(7) هكذا صدرت ترجمته في مطمح الأنفس لابن خاقان ص: 36، وتذكرة الحفاظ للذهبي 537/2 وأوجز المسالك للكاندهولي 45/1، وتاريخ الأدب العربي 86/3 وتاريخ التراث العربي 848/3، ودائرة المعارف الإسلامية 129/1، ومدخل المؤلفين والأعلام العرب لناصر سويدان ومن معه ص: 125.

(7م) هكذا وردت هذه الكلمة عند جميع من ترجموا له باستثناء ابن فرحون في الديباج 8/2، وابن الفرضي في التاريخ 265/1 «ابن جناهمة» ولعله تصحيف والله أعلم.

(8) مرداس: هي الحصاة التي يرمى بها في البئر ينتظر هل فيها ماء أم لا، انظر، خزانة الأدب 146/1.

(9) جهمرة أنساب العرب ص: 263، نفح الطيب 291/1. (10) الروض الأنف 119/4.

(11) هو عباس بن مرداس بن أبي عامر ابن حارثة بن عبد بن عيسى بن رفاعة بن الحارث بن حبي بن الحارث بن بهته بن سليم السلمي، يكنى أبا الهيكل، وقيل أبو الفضل، وقيل في نسبه غير ذلك، أسلم قبل فتح مكة، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وكان من المؤلفين قلوبهم انظر عنه وعن بقية أخباره وأشعاره: أسد الغابة 64/3، الإصابة 633/3 طبقات ابن سعد 271/4 الاستيعاب 817/2، الروض الأنف 119/4، خزانة الأدب 145/1 ولم تذكر هذه المصادر تاريخ وفاته.

(11م) يراجع في ترجمة ابن حبيب ما يلي: أخبار الفقهاء والحدثين للخشني: 245-254، قضاة قرطبة له

ولذلك فإن عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب ولد سنة 174 هـ وتوفي سنة 238 هـ مما يعني أنه عايش وعاصر أربعة من ملوك الدولة الأموية بالأندلس وهم:

- هشام الأول بن عبد الرحمان الداخل، (ت 180 هـ).
 - الحكم بن هشام، (ت 206 هـ).
 - عبد الرحمان الثاني بن الحكم الأول، (ت 238 هـ).
 - محمد الأول بن عبد الرحمان الثاني (238 الى ان توفي 273 هـ).
- حيث عاصر ابن حبيب ستة أشهر من ولاية هذا الأخير.

ثالثاً: شيوخه وتلامذته

1- شيوخه :

إن كثرة الشيوخ تزيد التلميذ توسعا في المعارف ومكانة خاصة عند العلماء، وإذا كان ابن خلدون يرى «إن لقاء المشيخة مزيد كمال في

= 54 ، طبقات النحويين للزبيدي : 282 ، تاريخ ابن الفرضي: 269/1 ، رسائل ابن حزم: 423/1-425 ، طبقات الفقهاء للشيرازي: 162 ، المقتبس لابن حيان القرطبي: 45-48 ، جذوة المقتبس للحميدي: 282 ، ترتيب المدارك للقاضي عياض: 142-122/4 ، فهرست ابن خير: 220-225 ، بغية الملتبس للضيبي: 376-378 ، أنباه الرواة للقفاطي 207-206/2 معجم البلدان للحموي: 323/1 ، العبر للذهبي: 427/1 ، تنكرة الحفاظ له: 537/2 ، دول الاسلام له: 14/1 امرأة الجنائح اليافعي: 121/2 ، البيان المغرب لابن عذاري: 10/2 ، الديباج لابن فرحون 15-8/2 تهذيب التهذيب لابن حجر: 391-390/6 ، تقريب التهذيب له: 614/1 ، لسان الميزان له: 59/4-60 ، وفیات ابن قنفذ: 42 ، النجوم الزاهرة لابن تغري: 293/2 ، طبقات المالكية مخ غ ع: 68-71 ، مجهول المؤلف ، طبقات الحفاظ للسيوطي: 233 ، بغية الوعاة له: 109/2 الإحاطة لابن الخطيب: 548/3-551 ، طبقات المفسرين للداودي: 347-350 ، الذيل والتكملة للمراكشي: 397/6-398 ، شذرات الذهب لابن العماد: 90/2 ، نفح الطيب للمقري: 8-5/2 ، كشف الظنون لحاجي خليفة: 909/1 ، إيضاح المكنون للبغدادي: 490/2 ، هدية العارفين له: 624/1 ، شجرة النور لمخلف: 74 ، دائرة المعارف الإسلامية: 129/1 ، الفكر السامي للحجوي: 339/2 ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: 86/3 ، الاعلام للزركلي: 302/4 ، تاريخ التراث العربي لسزكين: 148/3 ، ظهر الإسلام لأحمد أمين: 48/3 ، معجم المؤلفين لكحالة، 181/6 ، مداخل المؤلفين والاعلام العرب لتناصر سويدان: 288 ، تاريخ الفكر الأندلسي لبلانشا: 193-196 ، المجمع العلمي العربي ع 1975/313-317 ، مجلة دار الحديث الحسنية عدد 1979/1 ، ندوة الإمام مالك، سنة 1980 11/3-28 ، مجلة دعوة الحق عدد 1986/260: 70-83 ، دراسات في مصادر الفقه المالكي ليكلوش موراني: 154-160 ، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية للدكتور محمد العربي الخطابي 132/1 ، مجلة البحوث الفقهية، عدد 1992/15: 38-128 ، دليل السالك لعبد المنعم شلبي: 125-126 .

التعليم.. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها (12).
أعتقد أن ابن حبيب قد تيسر له الأخذ عن عدد كثير من الشيوخ الذين كانوا في قمة العدالة والضبط كأسد بن موسى في الحديث الذي كان يلقب بأسد السنة، وأصبغ بن خليل ويحيى بن يحيى الليثي كلاهما في الفقه.

ولذلك فقد أخذ عن شيوخ كثر منهم: صعصعة بن سلام المتوفى 180هـ، وزيايد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون المتوفى 193هـ، والغازي بن قيس المتوفى 195هـ، ومحمد بن بشير المتوفى 199هـ، وابن الماجشون المتوفى 214هـ، وأسد ابن موسى المتوفى 214هـ، ومطرف بن عبد الله المتوفى 220هـ، وأصبغ بن الفرغ المصري المتوفى 225هـ، وابن أبي أويس المتوفى 227هـ، ويحيى بن يحيى الليثي المتوفى 234هـ، وإبراهيم بن منذر الحزامي المتوفى 236هـ، وغيرهم كثير (13).

2 - تلامذته :

أثمر نتاج شيوخ ابن حبيب عالماً أندلسياً أعطى الشيء الكثير للمدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، وأنتج هذا الشيخ تلاميذ كونوا امتداداً طبيعياً لجهوده وآرائه ومؤلفاته، وأثروا بأقوالهم واجتهاداتهم التشريع الإسلامي عامة، وواصلوا حمل المشعل الحضاري الذي اقتبسوه من شيخهم عالم المائة الثالثة بدون منازع - أبي مروان عبد الملك بن حبيب، وسأعرض لبعض من تلاميذه الذين أخذوا عنه وكونوا مدرسة فقهية مالكية واصلت عملها إلى يومنا هذا، ومن هؤلاء التلاميذ نذكر: قرعوس بن العباس بن قرعوس المتوفى 220هـ، وعامر بن معاوية المتوفى 227هـ، وعمر بن موسى الكنانى المتوفى 257هـ، وسليمان بن نصر المتوفى 260هـ، وإبراهيم بن شعيب المتوفى 265هـ، وبقي بن مخلد المتوفى 276هـ، وإبراهيم بن لبيب المتوفى 278هـ، وابن وضاح المتوفى 286هـ، ويحيى بن عمر المتوفى

(12) المقدمة ص: 541.

(13) انظر بغية التعريف بشيوخ ابن حبيب في ص: 89 وما بعده من الرسالة.

289هـ، وولده عبيد الله بن عبد الملك بن حبيب المتوفى 291هـ، ومحمد بن عبد الملك بن حبيب (...). وغيرهم كثير ممن أخذوا عنه.

3- معاصروه :

كانت تربط ابن حبيب مع غيره من أقرانه العلماء علاقات علمية على غرار ما هو معروف وسائد عند العلماء، ولذلك يعسر علينا الإمام بكل الذين التقى بهم وارتبط معهم بعلاقات لا ندري هل هذه العلاقات وصلت إلى حد التلازم، أو انقطعت في المهد؛ وعلى كل فمن المرجح ان ابن حبيب كانت علاقاته وطيدة ومتينة مع علماء عصره سواء في الأندلس أو أثناء رحلاته. فلولا التقاؤه بالعلماء ومناقشتهم والأخذ عنهم لما ترك لنا تلك الثروة الهائلة من المؤلفات في مختلف أنواع المعرفة في وقت متقدم من هذا التاريخ.

ولذلك وكما اشرت الى بعض من شيوخه ومن تلامذته أرى من اللازم أن أعرض لبعض من معاصريه من العلماء الأندلسيين والافريقيين، والمصريين وذلك حتى تتضح قيمة الرجل أكثر فأكثر، وللبرهنة على أنه كان يعيش في مرحلة علمية مزدهرة ومن هؤلاء نذكر: عبد الله بن فروخ المتوفى 176هـ، وعلي بن زياد التونسي المتوفى 183هـ، وابن القاسم المتوفى 191هـ، وعبد الله بن وهب المتوفى 197هـ، وأشهب بن عبد العزيز المتوفى 204هـ، وسعيد بن محمد بن بشير المتوفى 210هـ، ويحيى بن معمر المتوفى 226هـ، ويحيى بن عبد الله بن بكير المتوفى 231هـ، وسعيد بن حسان المتوفى 236هـ، وسحنون القيرواني 240هـ، وعبد الرحمان بن الحكم المتوفى 257هـ، وابن عيدوس المتوفى 260هـ، وابان بن عيسى بن دينار المتوفى 262هـ، وابن المواز المتوفى 269هـ.

4- مؤلفاته :

ملأت تواليف ابن حبيب الأندلس، وعمت جميع البلاد الإسلامية واحتضنتها الخزائن الخاصة والعامة، بما في ذلك الخزائن الأوروبية كخزانة برلين في ألمانيا، وخزانة مدريد في إسبانيا، وخزانة يودليانا 2 في

بريطانيا. وتتميز مؤلفات ابن حبيب بالتنوع والشمول في جميع المجالات فهو فقيه، ومحدث، ومؤرخ، وشاعر، وطبيب، وفلكي.

وسنحاول فيما يلي الإشارة إلى بعض من مؤلفاته*

- وصف الفردوس طبع هذا الكتاب سنة 1407هـ عن دار الكتب

العلمية ببيروت.

- الغاية والنهاية، تحقيق الدكتور عبد المجيد تركي طبع سنة 1992م

عن دار الغرب الاسلامي.

- الطب النبوي، تحقيق الدكتور محمد علي البار صدر عن دار القلم

ببيروت 1993م.

- كتاب التاريخ، قام بنشره الدكتور محمود علي مكي في مجلة معهد

المخطوطات العربية سنة 1957 تحت عنوان: «باب استفتاح الأندلس»، وقد

طبع في إسبانيا سنة 1991 بمديرية بتحقيق المستشرق خورخي أغواي

الذي تصدره بدراسة عن شخصية المؤلف ونال به درجة دكتوراه الدولة من

جامعة مدريد.

- كتاب الورع يوجد مخطوطا في المكتبة الوطنية بمديرية رقم 5146.

- كتاب في الفرائض يوجد مخطوطا في مكتبة برلين بألمانيا تحت

رقم 4687.

- كتاب في معرفة النجوم يوجد مصورا على ميكرو فيلم بالخرانة

العامة بالرباط تحت رقم 90.14.

- كتاب الشعراء والأبرار (15).

- كتاب الجوامع (16).

(*) راجع تحليل هذه المؤلفات المطبوعة منها والمخطوط في ص: 115 وما بعدها من رسالتنا «عبد الملك بن حبيب وأثره في الفقه المالكي».

(14) وأشار الأستاذ محمد المنوني مقاله: «مكتبة الزاوية الحمزاوية صفحة من تاريخها» المنشور في مجلة

تطوان عدد 1961/3 ص: 156 الى كتاب في معرفة النجوم لابن حبيب بهذه الزاوية تحت رقم 80/د.

(15) أخبار الفقهاء والمحدثين ص: 246.

(16) المدارك 127/4، تاريخ ابن الفرضي 269/1.

- كتاب تفسير الموطأ (17).
- كتاب فضائل الصحابة (18).
- كتاب حروب الإسلام (19).
- كتاب طبقات الفقهاء والتابعين (20).
- كتاب سيرة الإمام في الملحين (21).
- كتاب إعراب القرآن (22).
- كتاب منهاج القضاة (23).
- كتاب كراهية الغناء (24).
- كتاب الحسبة في الأمراض (25).
- كتاب السخاء واصطناع المعروف (26).
- كتاب أخيار قريش وأخبارها وأنسابها (27).

-
- (17) المدارك 127/4، تاريخ ابن الفرضي 269/1، الديباج 11/2، طبقات المفسرين 349/1.
- (18) المدارك 127/4، تاريخ ابن الفرضي 269/1، معجم ما ألفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم د. صلاح الدين المنجد ص: 153.
- (19) المدارك 127/4، تاريخ ابن الفرضي 269/1، طبقات المفسرين 349/1، شجرة النور ص: 74.
- (20) المدارك 127/4، شجرة النور ص: 74.
- (21) المدارك 127/4، تاريخ ابن الفرضي 269/1، الديباج 11/2.
- (22) المدارك 128/4، أنباه الرواة 206/2، طبقات المفسرين 349/1، وسماء حاجي خليفة في كشف الظنون 1996/2 «الواضحة في إعراب القرآن»، ولعله التبس عليه الأمر بين كتاب «الواضحة في السنن والفقهاء» وبين هذا الكتاب وزاد مذيّل كشف الظنون المسألة غموضاً وإبهاماً عندما سماه: «الواضحة في إعراب الفاتحة» فاختلط له إما مع كتاب «الواضحة في إعراب الفاتحة» لعبد اللطيف البغدادي المتوفى 629هـ، أو مع كتاب «شرح الواضحة في تجويد الفاتحة» لابن أم قاسم المرادي النحوي من علماء المائة الثامنة.
- (23) المرقبة العليا ص: 188، معين الحكام 613/2، تنبيه الحكام ص: 186.
- (24) المدارك 131/4، رسائل ابن حزم 419/1، الديباج 12/2، طبقات المفسرين 349/1.
- (25) المدارك 128/4، الديباج 12/2، طبقات المفسرين 349/1.
- (26) المدارك 128/4، طبقات المفسرين 349/1، ولعله هو الذي قصده مخلوف في شجرة النور ص: 74 «مكارم الأخلاق»
- (27) المدارك 128/4، الديباج 12/2، طبقات المفسرين 350/3.

- كتاب السلطان (28).
 - كتاب الوثائق (29).
 - تفسير القرآن ستون كتابا (30).
 - كتاب المغازي (31).
 - كتاب الناسخ والمنسوخ (32).
 - كتاب رغائب القرآن (33).
 - كتاب الرهون والمغارم والحدثان خمسة وتسعون كتابا (34).
 - كتاب مقام رسول الله ﷺ (35).
 - كتاب في النسب (36).
 - كتاب الرياء (37).
 - كتاب الحكم والعمل بالجوارح (38).
 - كتاب فضائل مالك بن أنس (39).
 - كتاب القيامة (40).
 - كتاب الربا (41).
- 5- رحلاته :

استحب العلماء الرحلة وكانت ديدنهم في طلب العلم، والبحث عن

-
- (28) المدارك 128/4، الديباج 12/2، طبقات المفسرين 350/1.
- (29) البيان والتحصيل 297/5.
- (30) المدارك 128/4، الديباج 13/2.
- (31) المدارك 128/4.
- (32) المدارك 128/4، الديباج 13/2 إثنان وعشرون كتابا.
- (33) المدارك 128/4، الديباج 13/2.
- (34) المدارك 128/4، الديباج 13/2 وفيه كتاب الرهون والبدء والمغازي والحدثان خمسة وتسعون كتابا.
- (35) المدارك 128/4.
- (36) المدارك 128/4، الديباج 12/2.
- (37) المدارك 129/4، الديباج 12/2.
- (38) المدارك 129/4، الديباج 12/2.
- (39) المدارك 81/1، الديباج 13/2، طبقات المفسرين 350/1.
- (40) وصف الفردوس ص: 105.
- (41) الإحاطة 551/3.

الإسناد وعن أحوال الرواة ومذاكرة العلماء والتعرف عليهم؛ فكان أصحاب عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - يرحلون من الكوفة إلى المدينة ويتعلمون من عمر ويسمعون منه وقد رحل في طلب الإسناد غير واحد من الصحابة (42).

فالرحلة كانت من أسباب النهوض بالعلوم في الأقطار الإسلامية، وكان للأندلس حظها من الرحلة، إذ رحل جل شيوخها إلى المشرق طلباً للعلوم وكانوا يقيمون هناك الشهور والسنين ويأخذون عن أساطين العلم. وغالبية من كان يرحل من الأندلس إلى المشرق كان يفضل العودة إلى بلده ليبث هناك ما استفاده من علم وما شاهده من أحوال وآثار. ويعتبر فقيه الأندلس وعالمها أبو مروان عبد الملك بن حبيب موضوع هذه الدراسة المتواضعة من الذين رحلوا ورجعوا إلى بلادهم بعلم غزير. وإذا كان علماء الحديث يرون أن من أهداف الرحلة مذاكرة العلماء؛ فإن ابن حبيب قد رحل والتقى في رحلته مع فقهاء أجلاء أخذ عنهم وتأثر بهم إلى حد كبير.

ذكر الخشني في أخبار الفقهاء والمحدثين (43) أن عبد الملك بن حبيب لما عزم على الرحلة إلى المشرق استشار مع والده الفقيه الذي كان يحظى بقدر من الاحترام في المجتمع الأندلسي، فقال له: عزمت يا بني على الرحلة لطلب العلم، فقلت: نعم يا أباه، فقال لي: إذا كملت حوائجك فعرفني بذلك، فلما تمت حوائجي أعلنته فأخرج إلي ألف دينار، وقال لي: خذ هذه واستعن بها في طلب العلم ولا تنفق منها إلا في سبيل العلم، إلا إن احتجت إلى زيادة فاستدن عليّ بألف آخر، قال عبد الملك فمضيت وجمعت ما أحببت من الدواوين. فخرج عبد الملك بن حبيب من الأندلس متزوداً بنصائح والده، قاصداً مقام رسول الله ﷺ لقضاء فريضة الحج أولاً، وراغباً في طلب العلم ثانياً، وكانت بداية هذه الرحلة سنة 208هـ.

(42) تدريب الراوي 160/2.

(43) ص: 245.

ورافق عبد الملك في رحلته هذه جماعة من الأندلسيين لم يتمكن من الوقوف على بعضهم والتعريف بهم، وقد يكون - والله أعلم - هؤلاء من معاصريه الذين عاشوا معه يناظرونه ويشاورونه في الأندلس، وهناك احتمال ثان هو أن هؤلاء الذين رافقوه قد يكونون من عامة الأندلسيين رافقوه من أجل أداء فريضة الحج واستئناس بعضهم لبعض في قطع المسافات الطويلة التي توصلهم إلى قبر رسول الله ﷺ، وله في هؤلاء الذين رافقوه قصيدة يقول في مطلعها:

له در عصابة صاحبها	نحو المدينة تقطع الفلوات
ومهامة قد جبتها ومفاوز	ما زلت أذكرها بطول حياتي
حتى أتينا القبر قبر محمد	خص الإله محمدا بصلاة
خير البرية والنبي المصطفى	هادي الوري لطرائق الجنات
لما وقفت بقربه لسلامه	جادت دموعي واكف العبرات

إلى أن يقول

وعلى ضجيعه السلام مرددا ما لاح نور الحق في الظلمات

وفي رحلته إلى مقام رسول الله ﷺ التقى بشيوخ المدينة وأخذ عنهم منهم أسد بن موسى وابن الماجشون، ومطرف بن عبد الله، وإبراهيم بن المنذر الحزامي وغيرهم...

ثم بعد المدينة قصد مصرا قاصدا فقهاءها فدخلها وأعجب به أهل مصر، واستغربوا من قدومه من الأندلس، وكانت مصر بما تتمتع به من كثرة الفقهاء والعلماء ينظرون إلى أهل الأندلس نظرة مغايرة لبقية فقهاء البلدان الأخرى، لأن الأندلس كانت مازالت في بداية أمرها، فكانوا يعتبرونها عبارة عن بحر من الظلمات، ولم يكن لها من الشأ والقدر ما كان لمصر، ولكن ابن حبيب رفع من قيمة الأندلس حتى أصبح فقهاء مصر يحسبون لها ألف حساب.

وعندما دخل مصر قصدته طائفة من المتفقهة وقد أعدوا له مسائل من الحج، لا يزالون يقتنصون بها متفقهة الأندلس ففطن لمرادهم وكان

عده بعيدا بمطالعة كتب الحج، فلما فاتحوه بها آخر مجلسهم، اعتذر لقيامه فيما لابد للغريب منه ووعدهم لغد يومه وأتى رحله وصهر ليلته على مطالعة مسائل الحج حتى أحكم النظر فيها؛ فلما كان من الغد تهافتوا على مطارحتهم صعابها فأجابهم عنها جواب عالم، وذكر أنهم أخذوا عنه وعطلوا حلقة علمائهم. (44)

وفي مصر عكف ابن حبيب على مطالعة الكتب والالتقاء بفطاحل الفقه من فقهاء مصر، وظهر نبوغه بين معاصريه وشيوخه هناك. وبعدهما جمع ابن حبيب ما تيسر له أن يجمع من مختلف أنواع المعارف عاد إلى الأندلس سنة 210هـ. فتفرغ هناك للتأليف والإفتاء وظهرت مكانته بين فقهاء الأندلس وأدبائها؛ فاحتل مكان المشاورة مع يحيى بن يحيى الليثي وسعيد بن حسان وغيرهما.

وعندما وصل أمره وشأؤه في الأندلس بلغ الخبر إلى الأمير عبد الرحمان بن الحكم فنقله إلى قرطبة ورتبه في طبقات المفتين فيها، فأقام مع يحيى بن يحيى زعيمها في المشاورة والمناظرة، وكان الذي بينهما سيئا جدا، ومات يحيى قبله فانفرد عبد الملك بعده بالرياسة (45)، فاحتل رئاسة المدرسة الفقهية المالكية في الأندلس بعد وفاة شيخه ومنافسه يحيى بن يحيى الليثي، فألف في هذه الفترة كتاب الواضحة الذي يعد بحق من أقدم أمهات كتب المالكية في الأندلس وفي الغرب الإسلامي عموما، قال العتبي وذكر الواضحة: «رحم الله عبد الملك بن حبيب ما أعلم أحدا ألف على مذهب أهل المدينة تأليفه، ولا لطالب أنفع من كتبه ولا أحسن من اختياره» (46).

٦٠ صدى وفاته :

بعد عمر طويل قضاه ابن حبيب مجاهدا في حقل العلم درسا وتأليفا لبى داعي ربه في شهر رمضان من سنة 238هـ / 852م عن سن بلغت

(44) المدارك 126/4.

(45) تاريخ ابن الفرضي 269/1.

(46) الديباج 10/2.

أربعاً وستين عاماً بعد ولاية الخليفة محمد الأول بن عبد الرحمان الثاني بستة أشهر بمرض أصابه هو «علة الحصاة»⁽⁴⁷⁾ قالوا والخبر متصل أنه وجد جسده وكفنه وأفرين لم يتغيرا بعد وفاته بتسع وأربعين سنة، وقطعت من كفنه قطعة رفعت إلى الأمير عبد الله، وذلك بعدما دفن محمد بن وضاح إلى جنبه⁽⁴⁸⁾ وكانت وفاة هذا العالم حسرة وألماً في نفوس فقهاء الأندلس وعموم سكانها، فعمت إثر وفاته موجة من الاستياء والحزن داخل المجتمع الأندلسي وخصوصاً سكان قرطبة الذين عايشوه عن قرب وكما بكت الأندلس على الذين سبقوه يحيى بن يحيى الليثي وغيره، بكوا على ابن حبيب، ولما وصل نعي وفاته إلى سحنون قال: مات عالم الأندلس بل والله عالم الدنيا! فرثاه كثير من أدباء الأندلس وشعرائها، ومن الشعراء الذين رثوه أبو عباد الرشاش⁽⁴⁹⁾.

وقد قل فينا من يقال المذهب
لن هو مفهوم الفؤاد معذب⁽⁵⁰⁾

لان أخذت منا المنايا مهذباً
لقد طاب فيه الموت والموت غبطة
ولأحمد بن هانيّ فيه: ⁽⁵¹⁾

من التقى والسدى يا خير مفقود
ملأها حكماً في البيض والسود⁽⁵²⁾

ماذا تضمن قبر أنت ساكنه
عجبت للأرض في أن غيبتك وقد

المحور الثاني : أصول فقه ابن حبيب

إن أصول الفقه عند عامة العلماء لا تخرج عن الأدلة الشرعية المتفق عليها، وهي القرآن الكريم، ثم السنة النبوية، ثم الإجماع، ثم القياس. ولكن الاختلاف الحاصل بين العلماء هو مدى التفاوت في الأخذ ببعض المصادر

(47) الإحاطة 552/2.

(48) نفسه، إن صح هذا فسيكون ذلك من قبيل الكرامات وخرق العادات والله أعلم.

(49) شاعر أندلسي عاصر ابن حبيب، وكان يضرب به المثل في الفصاحة.

(50) المدارك 141/4.

(51) هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن هانيّ العطار المعروف بابن اللباب، قرطبي، يكنى بأبي عمر، سمع هو وأبوه من قاسم بن أصبغ - وكان أبوه أحد العدول، وكتب عنه، مات وأبوه حي، انظر المدارك

165/7، التكملة 14/1.

(52) المدارك 141/4.

الشرعية الأخرى كالمصلحة، والاستحسان، والعرف، ومذهب الصحابي، وشرع من قبلنا، ومراعاة الخلاف..

والحديث عن أصول فقه ابن حبيب يستلزم مني بالضرورة بيان هذه الأصول التي اعتمدها في فقهه واتخذها مناطاً في الاستدلال على تلك الثروة الفقهية الهائلة الماثورة في كتب المذهب.

ولقد قمت باستقراء آرائه الفقهية وأقواله المتناثرة هنا وهناك فتبين لي أن الرجل لا يخرج في آرائه وأقواله عن الأدلة المعتمدة عند جميع مجتهدي المذاهب الإسلامية، اللهم إلا ما ورد عنه من الأخذ ببعض هذه الأدلة المختلف فيها، وسأبين في المبحثين التاليين كيف تعامل ابن حبيب مع هذه الأدلة، وما هي خصوصياته في الاستدلال بها؟.

المبحث الأول : الأصول النقلية لفقه ابن حبيب

اتسم الفقه في عصر ابن حبيب باعتماده على مصادره الأولى، وهي الكتاب، والسنة، وبعض المصادر الأخرى مثل ما كان عليه الأمر في العصر الأول والثاني من الهجرة، إلا أن الباحث في عصر ابن حبيب يستشف أن الفقه يعرف بعض المصادر الأخرى في أصوله، وسيأتي الكلام عن هذه الأصول في ثنايا هذا المبحث.

وبالرجوع إلى بعض فتاوي ابن حبيب نجده يعتمد فيها النص القرآني بالدرجة الأولى، ثم بعدها النص الحديثي، ثم الإجماع، وهذه المصادر كأدلة نقلية كان يستدل بها في بعض القضايا المطروحة التي يبدي رأيه فيها، وإذا لم يجد في هذه المصادر ضالته كان ينتقل إلى الأدلة العقلية.

أولاً : القرآن الكريم

يأتي النص القرآني في المرتبة الأولى في فقه ابن حبيب، وتتنوع دلالة النص القرآني على الأحكام إلى أسلوب القطع وأسلوب الظن، ومن ثم فإن الدلالة قد تكون قطعية وقد تكون ظنية؛ فالألفاظ الواضحة المحددة للمعاني دلالتها قطعية، كأحكام الحدود وأحكام الأسرة.. أما الألفاظ غير

الواضحة المحتملة لأكثر من معنى دلالتها ظنية، كلفظ «القرء» على الظهر والحيض، ولفظ «المولى» للأعلى والأسفل، ولفظ «العين» للباصرة والجارية، والjasوس، والذهب، والورق، ولفظ «النكاح» في العقد(53).

وقد راعى ابن حبيب في أصول فقهه تنوع دلالة النص القرآني على الأحكام من دلالة قطعية إلى دلالة ظنية، إلى دلالة العبارة، إلى دلالة الإشارة، إلى دلالة المنطوق، ودلالة المفهوم، ساعده على ذلك اتساع ثقافته وعلمه الشامل بالفقه والحديث والتفسير واللغة والتاريخ وعلم الكلام... ولا بأس أن أشير إلى بعض القضايا الفقهية التي اعتمد فيها ابن حبيب النص القرآني:

- 1- فقد استدل رحمه الله على أكل الطيبات وما صيد بالكلاب المعلمة وشرب اللبن من الإناء الذي ولغ فيه الكلب بقوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهم مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ (54)
- 2- استدل أيضاً على ما يستحب من شكل النساء في اللباس والهيئة بقوله تعالى: ﴿والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾ (55).
- 3- كما استدل على الرغبة في المطعم الحلال بقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ (56).
- 4- كما استدل على أكل السحت والورع عنه بقوله تعالى: ﴿أكلون

(53) تاريخ الفقه الإسلامي، د. عبد المجيد عبد الحميد الذبياني ص: 42.

(54) الواضحة ص: 30 والآية في سورة المائدة 4/ وتتمتها: «واتقوا الله إن الله سريع الحساب».

(55) الغاية والنهاية ص: 215 والآية في سورة النمل 58/ وتتمتها: «وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم».

(56) الورع ص: 3 والآية في سورة (المؤمنون/ 52).

للسحت ﴿(57)﴾.

وقد أتيت بهذه الأمثلة للتنبيه على أن فقه ابن حبيب يستمد أصوله من القرآن الكريم.

ثانيا : السنة النبوية

السنة ثاني مصدر تشريعي بعد القرآن الكريم؛ فهي مفتاح القرآن الذي يهتدى به إلى كشف حقائقه، والوقوف على أسرارهِ ودقائقهِ؛ فالقرآن الكريم مصدر الشريعة الأولى، والسنة هي البيان، قال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (58) فالقرآن الكريم قطعي الثبوت، وأما السنة فهي ظنية الثبوت، والقطعي بدون شك مقدم على الظني، ثم إن السنة بيان للكتاب، والبيان تابع للمبين، فيكون المبين أولى بالتقدم (59). وتأتي السنة النبوية إما مقررّة أو مؤكدة لحكم ورد في القرآن، أو مخصصة لعامه أو مقيدة لمطلقه...

والسنة النبوية هي الأصل الثاني في الاستدلال من أصول فقه ابن حبيب بعد القرآن الكريم؛ فمن خلال استقراء بعض آرائه الفقهية واختياراته نجده يعتمد السنة النبوية سنداً في الاستدلال، وهو القائل في حد شارب الخمر: «ومن السنة أن يحد شارب الخمر ثمانين جلدة من شراب مسكر سكر أو لم يسكر أو وجد منه رائحة مسكر» (60).

والذي يلاحظ على ابن حبيب في استدلاله بالسنة النبوية أن طريقته في الاستدلال تأخذ اتجاهات متعددة، فهو تارة يستدل بالحديث متناً وسنداً، وتارة يستدل بالمتن فقط، وتارة يستدل بالبلاغات، وتارة يستدل

(57) الورع ص: 6 والآية في سورة المائدة / جزء من الآية 44.

(58) الحشر /7.

(59) أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي 461/1.

(60) المنتقى 47/7، وهذا هو مذهب عمر بن الخطاب في عقوبة شارب الخمر، وعمر بن عبد العزيز. وبهذا أخذ الأئمة منهم أبو حنيفة، ومالك، والثوري، وسندهم في هذا الحد الإجماع الوارد عن الصحابة رضوان الله عليهم، ن : أعلام الموقعين 183/1.

بالأثر مجرداً عن الإسناد. ولا بأس أن نعطي المعنى في خصوصيته في الاستدلال بالسنة النبوية:

أ - استدلاله بالحديث سنداً وممتناً :

هناك أحاديث عدة استدل بها ابن حبيب سنداً وممتناً، وهذه الأحاديث هي الواردة بكثرة في مصنفاته، «الواضحة»، و«الطب النبوي» و«الورع»، و«وصف الفردوس»، ومن أوجه هذا الاستدلال:

1- ما استدل به في مسألة الورع عن الظلم وما جاء في التشديد فيه، قال عبد الملك بن حبيب: «وعن الليث بن سعد عن عبد الله بن أبي الجعد أن رسول الله ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله إن شاء وظلم لا يترك، فأما الظلم الذي لا يغفره الله، فالشرك بالله، وأما الظلم الذي يغفره الله لمن يشاء فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين الله، والظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد» (61).

2- ما استدل به على الاستنشاق عند القيام من النوم حيث قال: «والزم ما يكون المبالغة في الاستنشاق عند القيام من النوم، فقد حدثني ابن الماجشون عن الدراوردي عن عيسى بن طلحة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنشق وليستنثر ثلاث مرات فإن الشيطان يبیت في خياشمه» (62).

3- ما استدل به على فضل المرأة الصالحة، فقد روى عن مطرف بن عبد الله وعبد العزيز الأويسى عن عبد الرحمان بن الخطمي أن رسول الله ﷺ قال: «من خير فائدة يفيدها امرؤ مسلم زوجة صالحة إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته» (63).

(61) الورع ص: 15 والحديث أورده صاحب كنز العمال في: 498/3 ببعض الاختلاف وعزاه إلى الطيالسي واليزار عن أنس.

(62) الواضحة ص: 7 والحديث أخرجه مسلم 119/1 «كتاب الطهارة» «باب الإيثار».

(63) الغاية والنهاية ص: 137 والحديث أخرجه أبو داود في سننه 126/2 رقم 1664 ضمن حديث، «كتاب الزكاة»، «باب في حقوق المال» وابن ماجه في سننه 596/1 رقم 1857 «كتاب النكاح»، «باب أفضل النساء»، والنسائي في سننه 68/6 «كتاب النكاح»، «باب أي النساء خير».

ب - استدلاله بالحديث مجرداً عن الإسناد

- روي عن رسول الله ﷺ أنه قال (64) «إن الرجل لا يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع أو ذراعان معه من الحسنات كأمثال الجبال لو خلي بينه وبين حسناته أدخل الجنة، فيأتي ناس يطلبون منه المظالم فيقول الجبار عز وجل للملائكة خذوا لهم من حسناته ثم يأتي آخرون فيطلبون منه المظالم حتى تقول الملائكة ربنا ما بقيت له من حسنة فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح بها في النار» (65).

ج - استدلاله بالبلاغات :

البلاغات من خصوصيات فقه ابن حبيب، حيث تأثر في هذا العنصر كثيراً بالإمام مالك، ونعطي مثلاً واحداً على هذا:

- قوله : - وبلغني أن رسول الله ﷺ عاتب الناس في غسل الرواجب (66).

د - استدلاله بآثار الصحابة :

قال عبد الملك بن حبيب : حدثني المبارك بن عبد الله أبو أمية أن رجلاً استعدي علي بن أبي طالب على قوم فقال : يا أمير المؤمنين! هؤلاء زوجوني امرأة مجنونة فقال علي: فما رأيت من جنونها؟ قال: إذا أتيتها غشي عليها، فضحك علي وقال: ما كنت لها بأهل (67).

ثالثاً : الإجماع

الإجماع في اللغة : من باب جمع وأجمع، يقال جمع أمره وأجمعه، وأجمع عليه كأنه جمع نفسه له قال الشاعر:

تهل وتسعى بالمصاييح وسطها ولها أمر حزم لا يفرق مجمع
وقال آخر :

يا ليت شعري والمنى لا تنفع هل أغلؤن يوماً وأمري مُجمَع (68)

(64) الورع ص: 15.

(65) أورده صاحب كنز العمال بألفاظ مختلفة، ن: 112/1 رقم 524، ص: 116 ورقم 545.

(66) الواضحة ص: 9 والرواجب هي أنامل الأصابع السفلى.

(67) الغاية والنهاية ص: 179.

(68) ن: اللسان مادة «جمع».

ويطلق الإجماع للمرة الثانية ويراد به الاتفاق، ومنه يقال: أجمع القوم على كذا، إذا اتفقوا عليه، وعلى هذا فاتفق كل طائفة على أمر من الأمور دينياً، كان أو دنيوياً يسمى إجماعاً، حتى اتفاق اليهود والنصارى، حيث أجمعت اليهود على تكذيب عيسى ومحمد عليهما السلام، في ادعائهما شريعة موسى، والنصارى أيضاً قد أجمعت على القول بالتثليث، وأجمعت على تكذيب محمد عليه السلام في النبوة، وأجمعت اليهود والنصارى على صلب عيسى بن مريم، وهذا كما يقول الإمام الباجي - رحمه الله - : «كله باطل في العقل بين المسلمين واليهود والنصارى وإنما فرق بينهم في السمع» (69).

أما في الاصطلاح فقد عرف عند علماء الأصول بتعاريف عديدة منها تعريف الباجي بقوله: «الإجماع اتفاق علماء العصر على حكم الحادثة» (70). وهذا التعريف على مذهب من يرى أن الإجماع ينعقد بعد الاختلاف، وأما على مذهب من يقول: إن موت المخالف وإجماع الباقي بعده لا ينعقد به الإجماع، فلا بد من زياده في هذا الحد، فيقال: «إجماع علماء العصر في حكم حادثة لم يتقدم فيها خلاف» (71).

وعرفه الآمدي بقوله: «الإجماع عبارة عن اتفاق جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد في عصر من الأعصار على حكم واقعة من الوقائع» (72). واتفق أكثر علماء المسلمين على حجية الإجماع، وأنه يجب العمل به، ولم يخالف في هذه الحجية إلا الشيعة، والخوارج، والنظام من المعتزلة، والرافضة، حيث ذهبوا إلى أنه ليس بحجة ومنهم من قال: لا يتصور انعقاد الإجماع ولا سبيل إلى معرفته (73).

ولقد ظهر الإجماع بعد وفاة الرسول ﷺ حيث طرأت على المجتمع

(69) ن: إحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي 368/2 وإحكام للآمدي 167/1.

(70) الحدود في الأصول من: 63 وهذا التعريف هو الذي ذهب إليه الشيرازي في اللع من: 87.

(71) نفسه من: 64.

(72) الإحكام 168/1.

(73) اللع من: 87.

الإسلامي تطورات سياسية واجتماعية فكان لابد لظهور هذا المصدر من مصادر التشريع الإسلامي، فكان الصحابة يجتمعون في مسجد المدينة لمناقشة القضايا التي تهم المسلمين في دينهم ودنياهم، مثل انتخاب الخليفة، ومحاربة المرتدين، وعدم قسمة الأراضي المفتوحة في العراق، ومصر، والشام، فإذا تم الاتفاق على الحكم سار عليه الحكم وتبعه المسلمون، وإذا وقع الاختلاف في الرأي استمر النقاش وجهدت الأفكار للوصول إلى ما يقنع والانتهاء إلى أمر مبرم ينعقد عليه الإجماع، ومن هنا كثرت إجماعات الصحابة (74).

وابن حبيب كفقيه مجتهد داخل المذهب المالكي، - ومن شروط المجتهد العلم بمسائل الإجماع حتى لا يفتي بخلاف ما وقع الإجماع عليه -، كان على علم بمواطن الإجماع، حيث عمل به واعتبره من أصول فقهه، ومما ورد عنه في هذا الموطن:

1 - استدلاله على الرجل الذي يشعر في يديه المال الحرام، ويريد الخروج منه ولا يعرف أربابه فيتصدق به...، وقد أفتى الفقهاء فيه بآراء مختلفة، وقال ابن حبيب: وقد أجمعوا على أنه إن لم يجد أربابه ولا ورثته أن يتصدق بذلك عنهم، فإن الله يعرفهم بالصدقة عنهم إذا لم يوجدوا كرده عليهم إذا وجدوا، وإنما الذي لا يجزيء ولا ينفع، إذا تصدق بذلك عن نفسه على وجه التقرب به ولم يكن ذلك منه على وجه الاتصال ولا الرد (75).

2 - استدلاله على بعث الحكمين بقوله تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من

أهله وحكماً من أهلها﴾ (76)، قال ابن حبيب: واتفق العلماء على بعث الحكمين عند التشاجر عملاً بالآية الكريمة، ولم يخالف في ذلك إلا يحيى بن يحيى، وكان لا يرى بعث الحكمين وتابعه على ذلك ولده عبيد الله، وأنكر

(74) أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي 487/1.

(75) الورع ص: 2.

(76) النساء 35 وتتمتها: «إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً».

الناس عليهما ذلك(77).

مما سبق يتبين لنا أن ابن حبيب اهتم بالإجماع في مسائل فقهه، وهذا الإجماع يمكن تسميته بالإجماع العام في أصول فقه ابن حبيب، وهناك إجماع خاص يعتبر كأصل من أصول فقهه وهذا الإجماع هو ما يسمى بإجماع أهل المدينة، الذي قال به الإمام مالك رحمه الله، واعتبره حجة.

وسوف لن أذهب مذاهب العلماء في الاختلاف حول هذا النوع من الإجماع، فيكفي أن أقول هو أصل من أصول المذهب المالكي، الذي اعتبره القاضي عياض في المرتبة الثالثة بعد الكتاب والسنة(78) وغيره.

وهناك أدلة اعتبرها الإمام مالك رضي الله عنه في إجماع أهل المدينة وكونه حجة قوله ﷺ: «إن المدينة طيبة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد»(79) وأن المدينة دار هجرة النبي ﷺ وموضع قبره، ومهبط الوحي، ومستقر الإسلام، ومجمع الصحابة، فلا يجوز أن يخرج الحق عن قول أهلها(80) ولهذا كان العلماء مطلقاً وخصوصاً أهل الحديث يرجحون الأحاديث الحجازية على العراقية(81)، لأن في المدينة مهبط الوحي فيكون الضبط فيه أيسر وأكثر(82) وإذا بعدت المشقة كثر الغلط والتخليط(83).

وقد اشتهر عن الإمام مالك رضي الله عنه أنه يقدم إجماع أهل المدينة على خبر الأحاد كما في مسألة بيع الخيار وغير ذلك. وقد أثر عن ابن حبيب تأثره بإجماع أهل المدينة، خاصة إذا علمنا

(77) اختصار النهاية والتمام للميتي مخ خ ع رقم 3008 د ص: 116.

(78) ن: المدارك 98/1.

(79) أخرجه البخاري في صحيحه، «كتاب فضائل المدينة»، «باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس»، و«باب المدينة تنفي الخبث» ببعض الاختلاف في اللفظ ن: 577/2 وما بعدها.

(80) الإحكام للأمدي 207/1.

(81) نفسه.

(82) نفسه.

(83) نفسه.

أنه دخل المدينة وعاش فيها، ولقد ورد عنه في الواضحة أنه قال في حديث بئر بضاعة: وهي بئر بالمدينة رأيتها ووقفت معتبراً بقدرها من الآبار وهي كالبير العظيمة من آبار السواني عندنا (84).

وهناك بعض النصوص الفقهية التي أثرت عنه والتي يظهر فيها تأثيره بعمل أهل المدينة واعتباره مصدراً من مصادر فقهه من ذلك:

قال في شهادة المرأتين من الرضاع: قال ابن القاسم إذا فشا ذلك وعرف من قولهما من قبل، فإن لم يفش فلا يجوز.

وقال ابن حبيب، أصحاب مالك مجمعون على أنه يفرق بينهما وإن لم يكن ذلك فاشياً قبل ذلك من قولهما (85).

رابعاً : شرع من قبلنا

إن شريعة سيدنا محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع السابقة هذا مما لا يجادل فيه أحد، ولكن الفقهاء اختلفوا هل كان الرسول ﷺ وأمة متعبدين قبل البعثة وبعدها بشريعة نبي سابق؟ هذه المسألة محل خلاف بين الفقهاء وعلماء الأصول ولئن أخوض في هذا الخلاف فإنه واسع ومتشعب.

ولقد اهتم الفقهاء المسلمون اهتماماً بالغاً بتوسيع مدارك الأحكام الفقهية حتى شملت اهتماماتهم شرائع الأمم السابقة.

وابن حبيب لا يخرج عن جماعة المسلمين فهو مجتهد، ومن واجبات المجتهد توسيع مدارك أحكامه.

وهناك بعض المسائل يظهر فيها ابن حبيب اهتمامه بهذا الدليل ويرجع إليه متى دعت الحاجة والضرورة إلى ذلك، ويتخذ مناهجاً في الاستدلال به.

ومن جملة المسائل التي استدلت عليها بشرع من قبلنا:

1- مسألة البول قائماً: فلقد استدلت على هذه المسألة بشريعة بني إسرائيل كان أحدهم إذا أصابه شيء من البول قرضه بالمقراض فنهاهم

(84) الواضحة ص: 33

(85) أصول الفتيا للخشني ص: 429.

عن ذلك فعذب في قبره حتى قال: أما البول قائماً فجائز.. غير أن البول جالساً أجعل وأسلم من انتضاح البول وأقرب إلى التحصين منه لما جاء فيه من الشدة (86).

2 وما استدل به كذلك بشريعة موسى في الورع عن الاستهزاء بالناس وقال، وبلغنا أن موسى بن عمران عليه السلام قال الله له أي عبادي شر؟ قال المستهزون بالناس (87).

3 وما استدل به في الورع عن الظلم وما جاء من التشديد فيه وقال: وبلغني أن بني إسرائيل خرجوا يستسقون فأوحى الله إلى نبيهم قل لبني إسرائيل كيف ترفعون أيديكم وقد تناولتم بها الحرام وملاؤم بيوتكم؟! الآن حين اشتد غضبي عليكم ولم تزدادوا مني إلا بعداً. وقال زيد بن أسلم مكتوب في التوراة ما استحل أحدكم حرمة من أحد ما حرم الله إلا بعث الله له من خلفه من يستحل تلك الحرمة منه (88).

فاهتمامه بشرائع الأمم السابقة دليل على اعتباره هذا الدليل، ودليل كذلك على توسيع مداركه في المسائل الفقهية بفروعها.

المبحث الثاني: الأصول العقلية لفقه ابن حبيب

ثمة مصادر أخرى اعتمدها ابن حبيب في فقهه غير ما تقدم، وهذه المصادر هي ما يسمى بالأصول العقلية في فقهه.

ومن خلال معاشتي مع فقه ابن حبيب تبين لي أن الرجل كان يعتمد زيادة على ما سبق في فقهه، العقل، ولقد وظف العقل عندما أخذ بالمصادر التي تعتمد في تحليلها على العقل، وسأبين فيما يلي نماذج من فقهه اعتمد فيها على الأصول العقلية ومن هذه الأصول التي اعتمدها ما يلي:

أولاً : القياس

القياس في اللغة : هو التقدير والتسوية، يقال : قاس الشيء يقيسه

(86) الواضحة ص: 42.

(87) الورع ص: 13.

(88) نفسه ص: 16.

قيساً وقياساً واقتاسه، وقيسه إذا قدره، قال الشاعر:

فهن بالأيدي مقيساته مقدرات ومخططاته (89)

وفي الاصطلاح عرفه علماء الأصول بتعاريف شتى منها: «القياس حمل أحد المعلومين على الآخر في إثبات حكم أو إسقاطه بأمر يجمع بينهما» (90).

وعرفه الشيرازي بقوله: «واعلم أن القياس حمل فرع على أصل في بعض أحكامه بمعنى يجمع بينهما» (91).

والقياس حجة في معرفة الأحكام، وطريق من طرقها، وذهب النظام والشيعة، وبعض المعتزلة البغداديين إلى أنه ليس بطريق للأحكام الشرعية ولا يجوز ورود التعبد من جهة العقل (92).

وأكر ابن حزم العمل بالقياس وألف كتاباً فيه سماه «إبطال القياس».

وكما لم أتعرض في مسألة الإجماع إلى إثبات حجيته، لست في حاجة كذلك إلى التعرض لإثبات حجية القياس وعرض أقوال المثبتين والمنكرين له، لأن ذلك مبثوث في جميع كتب الأصول على اختلاف مشاربها.

والذي يهمني في هذا هو إعطاء بعض الأمثلة التطبيقية من فقه ابن حبيب التي اعتمد فيها على القياس.

1- ما استدل به في شهادة المجهول الحال حيث أجاز شهادة المجهول الحال على التوسم فيما يقع بين المسافرين في السفر للضرورة إلى ذلك قياساً على شهادة الصبيان فيما بينهم في الجراح (93).

(89) اللسان مادة «قَيَسَ».

(90) الحدود في الأصول ص: 69 وعرفه بتعريف يقرب هذا في أحكام الفصول 457/2: «هو حمل أحد

المعلومين على الآخر في إيجاب بعض الأحكام لهما وإسقاطه عنهما بأمر يجمع بينهما».

(91) اللع ص: 96.

(92) نفسه ص: 97.

(93) المقدمات الممهدة 286/2.

2- ما أورده ابن رشد في البيان والتحصيل في حديثه عن الوصية فقال: «ولكن أحب إلي أن يرفع ذلك إلى السلطان حتى ينظر فيه، والقياس ما قاله ابن حبيب أنه إذا قال: فلان وصي على مالي فليس بوصي على الولد في تزويجهم» (94).

ثانياً : أقوال الصحابة والتابعين

أ- الصحابة: هم سادة الأمة وأئمتها وقاداتها، فهم سادات المفتين والعلماء (95) لهذا عرف كثير منهم بالفتيا، ومن أشهرهم: الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب (96).

ونجد ابن حبيب في أصول فقهه يقتفي أثر هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم - في الاستدلال إذ تبين لي وأنا بصدد البحث عن اختياراته الفقهية اعتماده واستناده إلى كثير من أقوال الصحابة في الاستدلال، ونقتصر على إعطاء بعض الأمثلة مما اقتبسناه من فقهه:

1- ما استدل به على ذكر الله فقال: وبلغني أن عبد الله بن ربيعة السلمي سأل ابن عباس عن قول الله عز وجل: «ولذكر الله أكبر» (97)، فقال عبد الله بن ربيعة ذكر الله بالقرآن، والصلاة والتسبيح، والتكبير، والتهليل حسن، وأفضل من ذلك وأكبر أن تذكر الله عند المحارم فتدعها، فقال له ابن عباس: لقد قلت قولاً عجيباً (98).

2- ما استدل به في أكل الجبن فقال: وقد تورع عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس في خاصة أنفسهم عن أكل الجبن، إلا ما تيقنوا أنه من جبن المسلمين أو جبن أهل الكتاب خيفة أن يكون من جبن المجوس، ولم يفتوا الناس ولا منعوهم من أكله (98).

(94) البيان والتحصيل 354-285/4 جامع ابن يونس 19/5.

(95) أعلام الموقعين 21/1، المدخل للتشريع الإسلامي ص: 118.

(96) سورة العنكبوت 45 وتتمتها: «والله يعلم ما تصنعون».

(97) الورع ص: 2.

(98) المعيار 5/1.

3- وبلغني أن عمر بن الخطاب، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير كانوا يعزلون عن الأمة، ويستأذنون الحرة، ثم قال: وإن كانت الأمة زوجة لم يعزل إلا بإذن أهلها (99).
 +++قال ابن حبيب : إن أبا الدرداء كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، أول يوم، واليوم العاشر، ويوم عشرين، ويقول: هو صيام الدهر، كل حسنة بعشر أمثالها (100)

ب - التابعين :

بعد وفاة الصحابة، صارت الفتوى إلى أصحاب هؤلاء وهم كبار التابعين، كسعيد بن المسيّب، راوية عمر وحامل علمه، وعروة بن الزبير، وابن شهاب الزهري، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس، وإبراهيم النخعي، ومكحول..

وكان المفتون من التابعين بالمدينة: ابن المسيّب، وعروة ابن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهؤلاء هم الفقهاء من التابعين، وقد نظمهم، القائل فقال:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجة
 فقل: هم عبيد الله، عروة، قاسم سعيد، أبو بكر، سليمان خارجة (101)

وقد استدلل ابن حبيب بأقوال التابعين واعتمد عليهم، وعمل بأرائهم في فقهه، ومما يمكن أن نسجله عليه هنا في أصول فقهه قوله:

1- كان عمر بن عبد العزيز يقول: ليست تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله: إذا كمل ما فرض الله عليه، وترك ما حرم الله، فمن رزق مع ذلك خيراً، فهو خير له، وخير إليّ خيره.. (102)

(99) الغاية والنهاية ص: 203.

(100) المنتقى 77/2.

(101) أعلام الموقعين 23-22/1.

(102) الورع ص: 2.

2- وبلغني أن أبا العالية الرياحي: وكان من خيار التابعين بالبصرة، خرج يوماً بعد صلاة الصبح يمشي في حاجة له قبل طلوع الشمس في الصيف، فقال لمن معه من أصحابه: هكذا أيام الجنة لا حر ولا برده (103).

ثانياً : المصلحة :

المصلحة في اللغة: واحدة المصالح، والاستصلاح نقيض الاستفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أقامه، وأصلح الدابة أحسن إليها فصلحت (104). وفي الاصطلاح: «المصلحة هي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم، ونفوسهم، وعقولهم، ونسلهم، وأموالهم، طبق ترتيب معين فيما بينها» (105).

نستنتج من هذا التعريف أن المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشرع من ضروريات، وحاجيات، وتحسينيات. وهذه المقاصد من الأمور الأساسية التي أمر الإسلام المسلمين بالمحافظة عليها وصونها، يقول الإمام الغزالي: «نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الأمر خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأمور الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة» (106).

وذهب الإمام الشاطبي في الاعتصام: «إلى أن المراد بالمصلحة عندنا ما فهم رعايته في حق الخلق من جلب المصالح ودرء المفسدات على وجه لا يستقل العقل بدركه على حال، فإن لم يشهد الشرع باعتبار ذلك المعنى، بل يردده كان مردوداً باتفاق المسلمين» (107).

فكل هذه التعريفات تكاد تتفق على أن المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الأمور خمسة: أن

(103) وصف الفردوس ص: 7.

(104) لسان العرب: مادة «صلح».

(105) ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية د. محمد سعيد رمضان البوطي ص: 23.

(106) المستصفى 287/1.

(107) ن: الاعتصام 13/2 وما بعدها، وانظر الموافقات 15/2 «كتاب المقاصد».

يحفظ عليهم الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، والمحافظة على هذه الأمور هي ما يدخل عند الفقهاء في باب «الضروريات الخمس»، يقول الإمام الشاطبي: «والمحافظة على الضروريات الخمس هو في الحقيقة الأصل» (108).

والمصلحة من الأصول العامة التي بنى عليها الإمام مالك مذهبه، ولهذا نجد كثيراً من الأحكام في المذهب المالكي بنيت على المصلحة (109). وابن حبيب كرائد من رواد المذهب المالكي في الغرب الإسلامي لم يشذ عن قاعدة العمل المصلحي في المذهب، وقال بها، واعتمدها دليلاً في بعض مسائله الفقهية حيث نقل عنه مسائل قال فيها بالمصلحة، جاء في المعيار في نوازل الجهاد إثر الكلام عن المجاهدين يغيرون على أطراف مراكز العدو الذي صالحه السلطان، وعن ابن القاسم: إن طمع قوم في فرصة في عدو قربهم وخشوا إن أعلموا الإمام منعهم فواسع خروجهم وأحب إلي أن يستأذنوه، قال ابن حبيب: سمعت أهل العلم يقولون إن نهى الإمام عن القتال لمصلحة حرمت مخالفته إلا بأن يدهمهم العدو، وقال ابن رشد: طاعة الإمام لازمة وإن كان غير عدل ما لم يأمر بمعصية، ومن المعصية النهي عن الجهاد المتعين» (110).

وقال في مسألة تسعير السلع: إن الجالب للطعام لا يمكنه أن يبيع إلا بسعر الناس وفي هذا من المصلحة ما فيه حتى لا يضر بالفريقين (111).

رابعاً : الاستحسان

الاستحسان في اللغة هو عد الشيء واعتقاده حسناً (112). وفي الاصطلاح: «هو الأخذ بأقوى الدليلين» (113)... وقال فيه

(108) الموافقات 32/2.

(109) ن: مثلاً بداية المجتهد 400/2 في الخلاف الوارد عن العلماء في قتل الجماعة بالواحد، ومن الطائفة التي قالت بقتل الجماعة بالواحد النظر إلى المصلحة، وانظر نفس الجزء ص: 2.

(110) المعيار 209/2.

(111) ن: القيس 838/2، المنتقى 15/5.

(112) التعريفات للجرجاني ص: 36.

(113) أحكام الفصول في أحكام الأصول للباي 52/1.

الشاطبي: «الاستحسان هو الأخذ بمصلحة جزئية في مقابلة دليل كلي» (114).
وباب الاستحسان قد طرقه كثير من الفقهاء وعلماء الأصول، فمن
أخذ به ومن رافض له (115).

والمالكية يعتبرون قاعدة الاستحسان ويأخذون بها، يقول الشاطبي:
«وعليها بنى مالك وأصحابه» (116).

وقد أثر عن الإمام مالك أنه قال: الاستحسان تسعة أعشار العلم (117).
فإذا كان المالكية يعتبرون قاعدة الاستحسان من أصول فقهم ويأخذون
بها؛ فإن ابن حبيب يأخذ هو الآخر بهذه القاعدة وسنبين من خلال بعض
الأمثلة التطبيقية التي اقتبستها من فقهه مدى أخذه بقاعدة الاستحسان
واعتمادها في أصول فقهه.

1- قال ابن حبيب: سئل مالك عن قول الرجل للرجل في العيد تقبل
الله منا ومنك، وغفر لنا ولك، فقال ما أعرفه ولا أنكره ابن حبيب: أي لا
يعرفه سنة ولا ينكره لأنه قول حسن (118).

2- ما استدل به في تخليل الرجل لحيته وقال: «من خلل لحيته عند
الوضوء فحسن مستحب مرغوب فيه» (119).

3- ما استدل به ابن رشد على الرجل الذي يفسد حجه بإصابة أهله
وهو بعرفة هل يمشي ماشياً حتى يحل بعمره أو يركب من حيث أفسد
حجه؟، فقد أورد في هذه المسألة كلاماً لابن حبيب جاء فيه: «وما نص عليه
ابن حبيب في الواضحة: من أن من ركب من غير أن يعجز عن المشي
أعاد المشي كله، إذ لا يجوز له أن يفرق مشيه إلا من ضرورة، ويهدي لأنه
لما وطئ فقد فرق مشيه باختيار من غير ضرورة، قال ابن حبيب: إنه إذا

(114) الموافقات 206/4.

(115) من الذين رفضوه: الإمام الشافعي، ن: الرسالة ص: 63 «باب الاستحسان»، ومن الذين أخذوا به
واعتبروه حجة، المالكية، والحنابلة، والحنفية.

(116) الموافقات 207/4.

(117) شرح الإمام زروق على الرسالة 260/1.

(118) شرح زروق على الرسالة 260/1.

(119) الواضحة ص: 8.

لم يطعم بالموضع الذي حكم به عليه أو فيما قاربه فليخرجه على أرخص السعيرين وهو احتياط واستحسان⁽¹²⁰⁾.

4- ما روي عن ابن المسيب أن الراعي الخاص لا يضمن، والمشارك يضمن، قال ابن حبيب ومن أخذ به فهو حسن⁽¹²¹⁾.

خامسا : العرف

العرف: «ما استقر في النفوس بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول»⁽¹²²⁾.

والعرف دليل شرعي عند جميع المذاهب الفقهية؛ فكثيرة هي الأحكام الشرعية التي بنيت على العرف، ومن الأدلة الشرعية على اعتبار العرف قوله تعالى: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»⁽¹²³⁾.

وهناك كثير من القواعد الفقهية التي بنيت على العرف منها: «العادة محكمة»، «استعمال الناس حجة يجب العمل بها»، «المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً»، «التعيين بالعرف كالتعيين بالنص»، «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان»⁽¹²⁴⁾.

وينبني على قاعدة العرف أحكاماً فقهية كثيرة استمدها الفقهاء من تطورات المجتمع وتقاليده وأعرافه. والمالكية لهم في العرف مقال طويل، إذ اعتبروه نوعاً من المصلحة وتوسعوا فيه كثيراً حتى إنهم خصصوا له بعض النصوص⁽¹²⁵⁾.

ونجد ابن حبيب يعتمد العرف ويتخذة دليلاً في استنباطه للأحكام الشرعية، من ذلك:

(120) البيان والتحصيل 6/4.

(121) المنتقى 76/6.

(122) التعريفات للرجاني ص: 163.

(123) الأنفال 199.

(124) ن: المدخل الفقهي العام، د. مصطفى أحمد الزرقاء 135/10 وانظر قواعد الفقه المالكي من خلال الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب ص: 213 وما بعدها، رسالة مرقنة بكلية الآداب بالرباط من إعداد الدكتور محمد الروكي تحت إشراف الدكتور فاروق حمادة.

(125) ن: العرف والعمل في المذهب المالكي، د. عمر الجبدي ص: 82.

- ما ورد في المنتقى عند الكلام عن الوصية: «وفي الواضحة عن أصبغ لو قال أعطوه طعاماً ولم يقل قمحاً ولا شعيراً فليعط من القمح لأنه الغالب في الناس، ووجه ذلك الاعتبار العرف، وذلك يتقرر بالشرع وعرف المخاطبة» (126).

سادساً : مراعاة الخلاف

قاعدة مراعاة الخلاف مما يحتج به الإمام مالك رحمه الله تعالى إذ رجح دليل المخالف على دليله في اللزوم (127).

وهناك من فقهاء المذهب المالكي من اعترض القول بمراعاة الخلاف كالإمام اللخمي والقاضي عياض (127).

وتعني هذه القاعدة اعتبار الخلاف في المذهب المالكي، قال الإمام الشاطبي: «فإن قيل فما معنى مراعاة الخلاف المذكورة في المذهب المالكي؟ فإن الظاهر فيها أنها اعتبار للخلاف (128)، ومن أمثلة هذه القاعدة: إذا دخل مع الإمام في الركوع، وكبر للركوع ناسياً تكبيرة الإحرام فإنه يتمادى مع الإمام مراعاة لقول من قال: إن تكبيرة الركوع تجزئ عن تكبيرة الإحرام وكذلك من قام إلى ثالثة في النافلة وعقدها يضيف إليها رابعة، مراعاة لقول من يجيز التنفل بأربع (129)».

وابن حبيب كان على علم بمواطن اتفاق فقهاء المذهب واختلافهم في المسألة، ونجد هذا واضحاً في اختياراته الفقهية. ومن أمثلة مراعاته للخلاف ما نقله ابن رشد في فتاويه في كلامه عن الصيد إذ قال:

«وأما صيد أهل الكتاب فهو على مذهب مالك - رحمه الله - حرام لا يؤكل منه إلا ما أدركوا ذكاته فذكوه بما يذكي به الإنسي، ودليله على ذلك توجيه الخطاب في إباحته إلى المسلمين دون الكفار في جميع أي القرآن، وذهب جماعة من أهل العلم إلى إباحته لقوله عز وجل: ﴿وطعام الذين

(126) 373/6.

(127) الجواهر الثمينة للمشاط، تحقيق عبد الوهاب أبو سليمان ص: 235.

(128) الموافقات 150/4.

(129) نفسه.

أوتوا الكتاب حل لكم» (130)، وهو قول أشهب، وابن وهب، وعلي بن زياد من أصحاب مالك، وإياه اختار سحنون وكرهه جماعة من أهل العلم منهم ابن حبيب، والكراهة في ذلك على مذهب من أجازة بينة لوجهين:

- أحدهما: مراعاة الخلاف لقول النبي ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى المشتبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه...» (131).

- والثاني: أن الصيد له حدود تلزم معرفتها، فإذا كان صيد الجاهل بها الذي لا يرع عن توقّي ما يلزمه أن يتوقاه في صيده مكروهاً فالذمي أحرى أن يكره صيده (132).

- قال ابن رشد أيضاً في كلامه عن بيع السلم في البيان والتحصيل: «... فإن وقع السلم إلى الأجل القريب، فسوخ على ظاهر قول ابن القاسم.. وقال ابن حبيب: لا يفسخ إذا وقع مراعاة للخلاف» (133).

المحور الثالث : خصائص فقه ابن حبيب

تبين لي مما سبق أن فقه ابن حبيب فقه وثيق الصلة بالكتاب والسنة وبأصول المذهب المالكي؛ فهو يستمد جذوره من هذه الأصول، وسأبين في هذا الفصل خصائص ومميزات فقه ابن حبيب عسى ذلك أن يزيدنا فهماً وتعميقاً لمنهجه الفقهي.

ولقد ظهر لي أثناء عملية الجمع لمادة هذا البحث من كتب الفقه المالكي ومن مصنفات ابن حبيب التي بين يدي أن فقه الرجل يتميز بعدة خصائص، وسأقتصر على الخصائص البارزة في فقهه، وهو ما سأتناوله في المباحث التالية:

(130) المائدة 6/.

(131) أخرجه البخاري في صحيحه 5/3 «كتاب البيوع»، «باب الحلال بين...»، ومسلم في صحيحه 697/2 «كتاب البيوع»، «باب أخذ الحلال وترك الشبهات»، والترمذي في سننه 340/2 «باب ما جاء في ترك الشبهات».

(132) فتاوى ابن رشد 565/1-566.

(133) البيان والتحصيل 292/7.

المبحث الأول : خاصية التعليل في فقه ابن حبيب

التعليل: «هو تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر» (134).

ويقصد بالتعليل عند الفقهاء أن يبحث المجتهد في الحادثة المستجدة عن دليل يتخذها منطاً في الاستدلال، وذلك حتى يتوصل به إلى استنباط الحكم الشرعي العملي الذي هو بصدد البحث عنه وإبداء الرأي فيه. والمتتبع لفقه ابن حبيب يلاحظ كثرة التعاليل الواردة في المسألة الفقهية. ولعل خاصية التعليل التي يتميز بها فقه ابن حبيب راجع إلى تنوع ثقافته وإحاطته الشاملة بالعلوم الشرعية واللغوية.

وإن هذا التنوع والشمول في مكوناته الثقافية هو الذي حمله على أن ينهج منهج التعليل في الأحكام مراعيّاً في تعليله ترتيب الأدلة الشرعية، وإذا لم يجد في المسألة دليلاً يجتهد رأيه أو يرجح آراء بعض شيوخ المذهب المتقدمين أمثال ابن الماجشون، وأصبغ وغيرهما. وسنبين فيما يلي بعض خصائص فقهه في تعليله للمسائل الفقهية في المطالب الآتية.

المطلب الأول : التعليل بالنص القرآني

ينهج ابن حبيب في تعليله للأحكام الشرعية التي يبدي رأيه فيها منهج العلماء الكبار الذين برعوا وتفننوا في تفسير النصوص وأدركوا معانيها ومراميها، إذ نراه يعلل في المسألة الفقهية بالنص القرآني فيستدل به ثم يبدي رأيه فيه، وهذه خاصية من خصائص ابن حبيب في التعمق في تفسير النص القرآني وفهمه ثم شرحه واستنباط الحكم منه.

1- نراه يستدل على خروج الروح من بني الإنسان بقوله تعالى: «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم» (135)، قال: يسلط على قبض الأنفس كما يسلط الرجل على قبض ما في راحته، فإذا قبض نفساً مؤمنةً دفعها إلى ملائكة الرحمة، وإذا قبض نفساً كافرةً دفعها إلى ملائكة العذاب (136).

(134) التعريفات ص: 75.

(135) السجدة 11/.

(136) وصف الفردوس ص: 105.

2- ما علل به فرائض الوضوء، فقال: «ومن الوضوء مفروض ومسنون، فمفروضه قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (137)، فهذا الوضوء المفروض الذي لا تجزئ الصلاة إلا به (138).

3- ما ذهب فيه إلى إيجاب الزكاة في الثمار دون الخضر معللاً بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ (139).

المطلب الثاني : التعليل بالنص الحديثي

سلفت الإشارة إلى أن ابن حبيب يعتمد النص القرآني في تعليله للمسائل الفقهية، وإذا لم يجد في المسألة نصاً قرآنياً يلتجئ إلى النص الحديثي، وتعليله للمسائل الفقهية بالنصوص الحديثية يتخذ أشكالاً مختلفة؛ فهو تارة يعلل المسألة بالنص الحديثي سنداً ومقتاً، وتارة يعلل بالحديث مجرداً عن الإسناد، وتارة يعلل بالحديث عن طريق البلاغات (140)، وهذه الطريقة تختلف تماماً عن بقية الفقهاء في تعليلهم للأحكام الفقهية، ولعل كثرة تعليله بهذه الطريقة الحديثية نابعة من فقهه بالحديث النبوي، رغم ما قيل فيه من طرف المحدثين في هذا الموضوع.

فغالباً ما نجد في فقه ابن حبيب ومن السنة كذا، وبلغني أن عمر بن الخطاب، وحدثني أسد بن موسى، وروى عن رسول الله ﷺ، وكلها جوانب وأمثلة فيها ما يكفي لأن نقول إن ابن حبيب يتمسك غاية التمسك بالحديث النبوي ويتخذ أساساً ومنهجاً في فقهه، وتلك خاصية تتنوع وتتعدد في منهجه الفقهي كثيراً.

ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة على تعليل ابن حبيب للمسائل الفقهية

(137) المائدة / جزء من الآية 6.

(138) الواضحة ص: 4.

(139) ن: بداية المجتهد 254/1، والآية في سورة الأنعام/141.

والأحكام بالنص الحديثي:

1- ما استدل به على سنن الوضوء فقال «ومن الوضوء مسنون معللا ذلك بقوله: وسن رسول الله ﷺ في ذلك المضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين» (141).

2- ما استدل به على تكفير تارك الصلاة والزكاة والصوم والحج معللا ذلك بقوله ﷺ: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» (142).

المطلب الثالث: التعليل بالرخص الشرعية والواجب، والمستحب، والكراهة

أريد أن أبين في هذا المطلب أن ابن حبيب لم يكن في اختياراته الفقهية مفرطاً ولا متشدداً، فلا هو بذلك الفقيه المفرط الذي يتسامح في التخفيف على المكلفين، ولا هو بذلك الفقيه المتشدد الذي يغالي في تطبيق الأحكام الشرعية على المكلف، فهو رحمه الله ينهج الوسطية والاعتدال في فقهه، وهذه خاصية تميز بها فقهه كثيراً؛ فهو تارة - رحمه الله - يستدل بالرخص الشرعية لقوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (143)، ولقوله ﷺ: «إن الله يحب أن توتي رخصه كما يحب أن توتي عزائم» (144)، وتارة يعلل بأقسام الحكم الشرعي، وسنعطي بعض الأمثلة من فقه ابن حبيب على ما نقول حتى تتجلى الصورة الحقيقية في تعليله للمسائل الفقهية:

(141) الواضحة ص: 4

(142) أخرجه مسلم في «كتاب الإيمان»، «باب بيان إطلاق إسم الكفر على من ترك الصلاة» ن: شرح النووي على مسلم 430/1 رقم 134، وابن ماجه في سننه «كتاب الصلاة»، «باب ما جاء فيمن ترك الصلاة» 342/1 رقم 1078.

(143) الحج / جزء من الآية 76.

(144) أخرجه الإمام احمد في المسند 108/3 عن نافع عن ابن عمر بلفظ «إن الله يحب أن توتي رخصه كما يكره أن توتي معصيته».

أولاً : اعتباره الرخص الشرعية

قال الإمام الغزالي : «والرخص في اللسان عبارة عن اليسر والسهولة، يقال رخص السعر إذا تراجع وسهل الشراء، وفي الشريعة : عبارة عما وسع للمكلف في فعله لعذر وعجز عنه مع قيام السبب المحرم» (145)، وهذا التعريف هو الذي درج عليه الآمدي حيث قال: «الرخصة ما شرع من الأحكام لعذر مع قيام السبب المحرم» (146).

وقد أورد ابن حبيب كثيراً من الرخص في فقهه وسنعتي بعض الأمثلة على ما استقيته في ذلك:

1- ما استدل به في مرور الحجاج بالجحفة حيث قال: «إذا لم يكن مرور أهل الشام وأهل المغرب بالجحفة فلا رخصة لهم أن يترك الإحرام من ذي الحليفة، يريد بذلك إذا لم يكن مرورهم على موضع يحاذي ميقاتهم» (147).

2- ما استدل به في مس الذكر وإيجاب الوضوء منه، معللاً ذلك بما روي عن ابن هرمز أنه قال: «من مس ذكره متعمداً فعليه الوضوء قال عبد الملك: وهذه رخصة في قول علي وابن هرمز» (148).

3 ما استدل به على تخليل أصابع اليدين حيث قال: «وأما أصابع اليدين فلا بد من تخليلها وإدخال بعضها في بعض عند الوضوء، معللاً ذلك بأنه ليس في ترك تخليلها من الرخصة ما في ترك تخليل أصابع القدمين» (149).

4 ما استدل به على إطعام الضيف في مساجد البادية معللاً ذلك بقول مالك وقال: «وأرخص مالك أن يطعم الضيف في مساجد البادية وقال ذلك شأنهم» (150).

(145) المستصفى 98/1.

(146) ن : الإحكام 114-113/1.

(147) مواهب الجليل 37/2.

(148) الواضحة ص: 22.

(149) نفسه ص: 8.

(150) الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لابن شاس مخ خ ح رقم 7984، 175/2.

ثانياً: تعليله بالواجب

الواجب شرعاً هو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلباً حتماً بأن اقترن طلبه بما يدل على تحميم فعله، كما إذا كانت صيغة الطلب نفسها تدل على التحميم، أو دل على تحميم فعله ترتيب العقوبة على تركه، أو أية قرينة شرعية أخرى(151).

ومما عثرت له على تعليله بهذا المصطلح، أعطي مثالين:

1- ما ذهب إليه في ترتيب المفروض في الوضوء حيث ذهب البعض إلى أنه سنة، وقال ابن حبيب: إنه واجب مع الذكر والقدرة ساقط مع العجز والنسيان(152).

2- ما يذهب فيه إلى أن وضوء الجنب للنوم واجب(153).

ثالثاً : تعليله بالكراهة

المكروه: «هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله طلباً غير حتم، بأن تكون الصيغة نفسها دالة على ذلك»(154).

ونجد لابن حبيب كثيراً من التعليقات بهذا المصطلح وهي خاصة من خصائص فقهه ونقتصر على ذكر بعض الأمثلة من ذلك:

1- ما ذهب إليه في مسح الأذنين في الوضوء ظاهرهما وباطنهما بأن يدخل السبابة في الصماخ ويجعل الإبهام من خارج ثم يديرهما كذلك، معللاً ذلك بالكراهة حيث قال: «ويكره تتبع غضونهما لأن مقصد الشارع بالمسح التخفيف والتتبع ينافيه والاقتصار على إحدى الجهتين من الظاهر والباطن يجري على الخلاف المتقدم فيهما»(155).

(151) علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص: 105.

(152) شرح الإمام زروق على الرسالة 116/1.

(153) ن: الواضحة ص: 38، شرح الإمام زروق على الرسالة 127/1.

(154) علم أصول الفقه ص: 114.

(155) شرح الإمام زروق على الرسالة 115/1.

2- ما ذهب إليه في الوضوء من سؤر الدواب التي تأكل أرواثها معللاً ذلك بالكراهة (156).

رابعاً : تعليله بالمستحب

المستحب: «هو الفعل الذي لم يواظب عليه الرسول ﷺ بأن فعله مرة أو مرتين» (157).

وهذا المصطلح في فقه ابن حبيب تابع لما قبله، فهو يتكرر كثيراً في فقهه، ومما عثرت عليه هنا في تعليله بهذا المصطلح ما يلي:

1- ذهب إلى أن المصلي يستحب له مباشرة الأرض بوجهه ويديه ولا بأس بحائل لحر أو برد، ويستحب القيام عليها ويجوز على حائل من نبات لا يستنبت كحصير أو خمر (158).

2- ما ذهب إليه من أن الوضوء لغير الجنب مستحب مرغوب فيه والرجل والمرأة في ذلك سواء (159).

3- ما ذهب إليه من استحباب السواك عند الوضوء (160).

4- ما ذهب إليه من أن الحاج يستحب له أن يستكثر من ماء زمزم تبركاً ببركته، واستحب لمن حج أن يتزود منه إلى بلده فإنه شفاء لمن يستشفى به (161).

5- واستدل على ما يحل من الحائض بقوله: «ويستحب اجتناب أسفلها مخافة الذريعة إلى مسيس الفرج» (162).

هذه هي الخصائص العامة في فقه ابن حبيب، وهي خصائص تبين قدرة الرجل على استنباط الحكم الفقهي، وتبين الاتجاه العام في

(156) الواضحة ص: 29.

(157) مختصر الدر الثمين لميارة الفاسي ص: 75.

(158) شرح زروق على الرسالة 98/1.

(159) الواضحة ص: 36.

(160) نفسه ص: 34.

(161) مواهب الجليل 116/2.

(162) الغاية والنهاية ص: 101.

الاستنباط لدى فقهاء الغرب الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

المبحث الثاني: خاصة اهتمام ابن حبيب بالفروع الفقهية

يتميز ابن حبيب في منهجه الفقهي بخاصية هامة، وهي خاصة التبويب الفقهي، حيث يورد أبواباً مستقلة لكل باب من أبواب الفقه، ونستشف ذلك من قطعة الواضحة التي بين أيدينا حيث بدأها بالوضوح، وهو أول باب من أبواب الفقه، ونفس الشيء يتكرر في كتابه الغاية والنهاية حيث بوبه إلى مجموعة من الأبواب، وهذا دليل على اتساع منهجه الفقهي الذي اقتفى فيه أثر الإمام مالك في موطأه واقتفى فيه كذلك أثر شيوخ المذهب الكبار.

وبهذه المنهجية الفريدة من نوعها في ميدان التصنيف يكون ابن حبيب قد شق الطريق لفقهاء المذهب المالكي من مجتهدين، ومفتين، وأصوليين ليهتموا بالفروع الفقهية.

فالذي يتتبع فقهه يدرك تماماً قدرة الرجل على تفريع المسائل الفقهية من أصولها، وتلك خاصية من خصائص فقهه، ولا شك أن الذي ساعده على تفريع المسائل الفقهية من أصولها علمه الواسع بالفقه، والحديث، واللغة، وغير ذلك كما تقدم غير ما مرة؛ فاهتمامه بالفروع الفقهية من أهم مميزاته الفقهية؛ نراه يفرع عن المسألة الواحدة عدة فروع ويعزو كل فرع إلى قائله؛ فلا يذكر فرعاً منقولاً دون أن ينسبه إلى قائله، حيث ينهج منهاجاً خاصاً في تفريع المسألة من أصلها ويقول، وهذا ما ذهب إليه مالك، وقاله ابن الماجشون، وذكره لي أصبغ، وحدثني به أسد بن موسى.. وهذا نوع من من الأمانة العلمية اتصف به ابن حبيب وهو اصطلاح عجيب ظهر في وقت متقدم، فهو يستنبط، ويجتهد، ويرجح، ولهذا يمكننا أن نقول إنه كان مولعاً بالتقسيم والتأصيل للمسائل الفقهية وتلك ميزة كل عالم يريد أن يعرض الموضوع الذي هو بصده.

ونعطي بعض الأمثلة من فقه ابن حبيب ليتبين مدى قدرة الرجل على

تفريع الجزئيات الفقهية من الكليات.

1- مسألة العمل في النسيان في الوضوء:

فرع ابن حبيب عن هذه المسألة عدة فروع وقال: ومن نسي شيئاً من وضوئه فذكره وهو جالس على وضوئه غسل ما نسي، وما بعده، كان من مسنون الوضوء أو من مفروضه، وإن ذكر بعد أن فارق وضوءه وكان الذي نسي من مسنون الوضوء قضى ما نسي وحده، ولم يغسل ما بعده، طال أمره أو لم يطل، صلى أو لم يصل، ولا إعادة عليه لصلاته، قال: وإن كان ما نسي من مفروض الوضوء وهو مما يغسل مثل الوجه أو الذراعين أو الرجلين فعليه ابتداء الوضوء، ولا يجزيه أن يغسل ما نسي فقط، وإن كان ما نسي مما يمسح مثل الرأس أو الخفين فإنما يقضي ذلك وحده.. (163).

2- مسألة القبلة هل تنقض الوضوء أم لا؟ :

فرع ابن حبيب عن هذه المسألة جزئيات عديدة وقال: ومن قبلته امرأته أو جاريته أو دهنته بيدها فالتذ بذلك فعليهما جميعاً الوضوء، أو من التذ به منهما، قال: ومن خلعت جاريته خفه أو ألبسته ثوبه فلا وضوء عليهما وإن التذا بذلك، وقد يكلمها ويغازلها ويديم النظر إليها وإلى محاسنها فيلتذان بذلك فلا يكون عليهما شيء (164).

3- مسألة الصداق إلى غير أجل :

نفس الشيء نهجه كذلك في هذه المسألة حيث فرع عنها فروعاً وقال: إذا وقع الصداق إلى غير أجل فمات الزوج، أو طلق قبل البناء فلا شيء عليه من مؤجل أو معجل، وكذلك بمائة دينار، وبعد أبق، وبغير شارد فلا شيء لها من معلوم ومجهول (165).

من هذه التفريعات السالفة يتبين لنا قدرة ابن حبيب في تفریع المسائل الفقهية، وبهذه الخاصية يكون ابن حبيب قد فتح الباب لفقهاء المذهب المالكي ليهتموا بمسألة التفريعات الفقهية، ويعتبر كتابه الواضحة

(163) الواضحة ص: 17.

(164) نفسه ص: 20.

(165) المعيار 135/3 وانظر المدونة 217/2 «النكاح بصداق مجهول».

الذي عرض فيه كثيراً من الفروع الفقهية أهم مؤلف وصل إلينا في هذا الباب.

المبحث الثالث : خاصية الجمع في فقه ابن حبيب بين الطريقة الأندلسية والطريقة المشرقية

مر الفقه الإسلامي عموماً بأطوار مختلفة، وهذه الأطوار تبتدئ من عهده عليه الصلاة والسلام، ثم عهد صحابته الكرام، ثم عهد التابعين، ثم عهد صغار التابعين وكبار تابعي التابعين، وأخيراً طور الاجتهاد. ويبتدئ هذا الطور من أواخر عهد الدولة الأموية إلى نهاية القرن الرابع الهجري على وجه التقريب، وقد يطول بنا الكلام إذا نحن تتبعنا مميزات هذه الأطوار بأهدافها ومضامينها، فالكلام في ذلك يحتاج إلى بحث مستقل.

أما الفقه المالكي خصوصاً فلقد مر من بداية القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الثالث الهجري بمرحلتين هامتين:

المرحلة الأولى : ويطلق على هذه المرحلة «مرحلة التأصيل» ويمثلها الإمام مالك نفسه وكتابه الموطأ.

المرحلة الثانية : ويطلق عليها «مرحلة التفريع»، وتجلت بواكر هذه المرحلة في نشر المذهب المالكي عبر تلاميذه في العراق، ومصر، والقيروان، والأندلس، كما ظهرت في هذه المرحلة أمهات الفقه المالكي التي اهتم فيها أصحابها بتفريع الجزئيات من الكليات.

والملاحظ في هذه المرحلة ظهور مجتهدين كبار في المذهب المالكي، إذ بدأت الرحلة من الغرب الإسلامي إلى المشرق، وبدأ العلماء يحتكون فيما بينهم ويتناظرون ويأخذ بعضهم عن بعض.

وابن حبيب كمجتهد له مكانته بين فقهاء الأندلس تميز فقهه في هذه المرحلة بخاصية انفراد بها عن غيره وهي جمعه في فقهه بين الطريقة المغربية والطريقة المشرقية، وإن كان في رحلته إلى المشرق لم يدخل بعض الأمصار كالعراق واليمن، ولكنه التقى بأهل هذه الأمصار وتدارس معهم،

وناظروهم، يؤكد هذا ما ورد في كتابه الواضحة في مسألة أكل ما أمسكت كلاب الصيد بأفواهها من الصيد فقال: «وهو مثل أكل ما ولغت فيه من الطعام فأجزنا أكل ما ولغت فيه بكتاب الله (166) وأمرنا بغسل الإناء منه لسنة رسول الله ﷺ (167)، ثم قال: وقد حاجني بعض العراقيين في هذا فحاججته بهذه الحجة فما وجد لها مرداً» (168).

لقد أوتي ابن حبيب في خاصية الجمع في فقهه بين الطريقة المغربية والطريقة المشرقية مزية امتاز بها وهي كونه عرف الخلاف ووجوهه بين فقهاء المذهب المغاربة والمشاركة؛ فنراه يجمع هذا القول على هذا، ويأخذ بالأحوط في نظره، ونراه يجمع في أقواله واحتجاجه بشيوخ المذهب، المغاربة والمشاركة؛ فلقد ورد عنه أنه قال في مسألة فقهية: «قول ابن القاسم رخصة وتوسعة، وقول مطرف استحسان، وقول ابن الماجشون هو القياس» (169).

وقد استدلل في الذي ترك الوضوء من مس الذكر حتى صلى فقد اختلف فيه قول مالك روى المدنيون عنه أنه قال عليه الإعادة في الوقت وبعده، واحتجوا بأن مالكا روى عن نافع عن ابن عمر أنه أعاد منه صلاة الصبح بعد طلوع الشمس، وروى المصريون عنه أنه استخف إعادة الصلاة منه إلا في الوقت، ورأيت أصبغ أخذ برواية المدنيين وأحب ما فيه إلي إن كان تعتمد مسه أن يعيد في الوقت وبعده، وإن كان إنما خطرت له يده غير متعمد لمسّه ألا يعيد إلا في الوقت الذي جاء فيه الرخصة في ذلك عن علي وابن هرمز (170).

(166) وهو قوله تعالى: «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم» المائدة 4.

(167) وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا شرب الكلب في إناء أحكم فليغسله سبع مرات» ن: الترمذي 61/1 رقم 91 «باب ما جاء في سؤر الكلب».

(168) الواضحة ص: 30.

(169) ن: البيان والتحصيل 230/6.

(170) الواضحة ص: 22.

وكان لهذا الازدواج في صياغة فقه ابن حبيب أثره البين والواضح في نبوغه كفقيه، كما كان كذلك للفقهاء الذين أخذ عنهم من الأندلسيين والمشرقيين دور كبير في تكوين شخصيته الفقهية، دون أن ننسى ما حباه الله به من مواهب جعلت منه فقيهاً متمرساً عرف فقهاء المشرق والمغرب قدره، واهتموا بفقهه ومؤلفاته المتنوعة، وانتهت إليه رئاسة الفقه المالكي في الأندلس.

المبحث الرابع: خاصية المصطلح في فقه ابن حبيب

إن تاريخ التشريع الإسلامي ينبئ بتدرج قواعده ومصطلحاته الفقهية. فبينما لم يتهىء تقنين الفقه في عصوره الأولى وفق مسائل وأحكام تقتزن من الشكل القانوني المجرد، فقد كان الفقه ممزوجاً بالأدب والزواج والترغيب التي تضيف عليه روحاً تشوق المسلم وتزجره⁽¹⁷¹⁾. وقد تناولت كتب المذاهب الفقهية ألفاظاً ومصطلحات مشهورة، وكانوا لا يطلقون مصطلح «الحلال» و«الحرام» على الأحكام الشرعية المستنبطة، لأن الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، وتورعاً منهم وتحريماً في الدين استعملوا ألفاظاً عبروا بواسطتها عن مصطلح الحلال والحرام، «كالكراهة» و«الاستحباب»، و«الاستحسان»، و«الرغبة»، و«الرخص»، و«العزيمة»، وهي مصطلحات استعملها الفقهاء احتياطاً في الدين اللهم إذا وردت صيغة الحلال والحرام في نص شرعي فيقول به الجميع كقوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾⁽¹⁷²⁾ وقوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم...﴾⁽¹⁷³⁾ وقوله: ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾⁽¹⁷⁴⁾ وقوله ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي

(171) الموطأت، نذير حمدان ص: 249.

(172) المائدة/3.

(173) النساء/23.

(174) المائدة/96.

إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» (175).
 وتميز المذهب المالكي بمصطلحات خاصة به، وهذه المصطلحات منها الخاص بالرجال ومنها الخاص بالكتب، ومنها الخاص بالفقهاء، فمن المصطلحات الخاصة بالرجال إطلاق المالكية لفظ القرينان على أشهب وابن نافع، والأخوان على مطرف وابن الماجشون، وهما من شيوخ ابن حبيب، والقاضيان على ابن القصار وعبد الوهاب، والمحمدان على ابن المواز وابن سحنون، والإمام على المازري، والشيخان على ابن أبي زيد وعلي القابسي. ومن المصطلحات الخاصة بالكتب إطلاقهم لفظ الكتاب على المدونة، وإطلاقهم لفظ الأمهات على المدونة، والعتبة والموازية، والواضحة (176).
 أما المصطلحات الخاصة بالفقهاء، فهي كثيرة في المذهب المالكي، وقد يوجد مثل هذه المصطلحات عند فقهاء المذاهب الأخرى.

وحسبي في هذا المبحث أن أشير إلى بعض المصطلحات التي وردت في فقه ابن حبيب، وقد سبق الكلام على بعضها في المبحث الخاص بالتعليل في هذا الفصل، ومما يجب التنبيه عليه هنا أن خاصية المصطلح في فقه ابن حبيب تتميز بما يلي:

1 - أنه ينسب كل فرع إلى قائله، فيشير بكلمة قال إلى صاحب الفرع الأصلي، وهو إما الإمام مالك أو غيره من تلامذة المذهب وهم شيوخه الذين أخذ عنهم.

2 - استعماله بعض المصطلحات العامة في فقهه، وهي المصطلحات المعروفة في جميع المذاهب الفقهية مثل قوله: (ومن السنة كذا) (والمشهور) (ولا يجوز)، (وواجب)، (وسنة الناس ببلدنا)، (وبطلت)، (وأكره كذا)، (ويفعل ويعيد)، (وأحب إلي)، (وبه أقول)، (ومن السنة عندنا).

ويلاحظ في فقه ابن حبيب انفراده بمصطلحات لم تعرف عند فقهاء

(175) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص: 71 «باب الظلم ظلمات».

(176) ن: مواهب الجليل 40/1، حاشية العدوي على شرح الخرشي 38/1 مسائل لا يعذر بها بالجهل ص: 6.

دليل السالك ص: 84، مج دار الحديث الحسنية ع 1992/10 ص: 65.

المذاهب الأخرى كقوله: (وسنة الناس ببلدنا) (177).

وسأشير إلى بعض الأمثلة الفقهية عمل فيها ابن حبيب بهذه المصطلحات.

1 - استحَب ابن حبيب أن يقول المتوضئ إثر الوضوء: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين (178).

2 - ذهب إلى جواز التيمم على الجدران كان حجراً أو أجراً إن لم يجد الماء ولا التراب (179).

3 - قال في الذي أصابه رعاف أثناء الصلاة أن لا يصيب جسده أو بدنه قدر الدرهم من الدم، فإن أصابه كثير بطلت اتفاقاً (180).

4 - قال في صلاة الخسوف: المشهور أنها بلا أذان ولا إقامة، لأنهما إنما يكونان للفريضة (181).

5 - قال في العمرة إنها واجبة كالحج (182).

6 - قال: وليس يجزئ المتوضئ في غسل وجهه عند الوضوء إلا أن يحمل الماء إليه ويجري يديه عليه (183).

7 - ذهب إلى أن تخليل اللحية عند الوضوء رغبة (184).

8 - قال: وأكره للرجل أن يستنجي وخاتمه في أصبعه من يده التي يستنجي بها (185).

9 - ذهب إلى أن الاستنجاء ليس من سنة الوضوء (186).

(177) ن: أصول الفتيا ص: 149.

(178) تنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة للتائي المالكي، تح د. محمد عايش عبد العال شبير 528/1 .

(179) نفسه 362/2.

(180) نفسه 370/2.

(181) نفسه 525/2.

(182) إرشاد السالك لابن فرحون المالكي، تح محمد أبو الأجفان 363/2.

(183) الواضحة ص: 7.

(184) نفسه.

(185) نفسه ص: 10.

(186) نفسه ص: 13.

هذه هي بعض المصطلحات التي واجهتني في فقه ابن حبيب، والذي يلاحظ في هذه المصطلحات التزام الرجل بالمنهج الفقهي المعروف عند جميع المذاهب الفقهية.

استنتاج لما ورد في هذا الباب :

إن الناظر في فقه ابن حبيب من خلال الباب الذي عنوانته «بالاطر النظري لفقهه» يلاحظ ما يلي :

1 - تأثر ابن حبيب التام والمطلق بفقه الإمام مالك وبكتابه الموطأ، فهو ينقل عنه ويعتمد أقواله ولكن دون تعصب.

2 - التزامه منهجية شيوخه في فقهه المغاربة منهم والمشاركة من خلال اعتبار أقوالهم وآرائهم.

3 - اعتماده في فقهه على أصول تشريعية أساسية وأصول تشريعية تتبعية لهذه الأصول، وهذا يبين لنا التكامل المطلق في فقه ابن حبيب بين ما هو أصلي وما هو تباعي.

4 - ونظرة عامة في اختياراته الفقهية يلاحظ تقديمه النص القرآني على غيره من النصوص الشرعية اعتباراً منه أن كلام الله تعالى: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» (187)، وهذا الترتيب في فقهه يعطينا نظرة شاملة عن خصائص فقهه.

5 - لاحظت في تباعي فقه ابن حبيب أنه يلتزم ما يسمى بثنائية النقل والعقل، ولا نستغرب دور العقل في فهم النصوص الشرعية واستنباط الأحكام منها، وفي هذا رد على ابن خلدون الذي يقول في مقدمته (188): «وأما المالكية فالأثر أكثر معتمدتهم وليسوا بأهل النظر»، فاعتماد المالكية على العقل بدأ منذ وقت مبكر، فلا عقل بدون شرع ولا شرع بدون عقل.

والتزام ابن حبيب بهذه الثنائية جعلت منه مجتهداً في المذهب

(187) فصلت / 41.

(188) ص: 457.

المالكي، عرف فقهاء المذهب قدره وقدره واقتبسوا من فقهه الشيء الكثير.

المحور الرابع : المجال التطبيقي في فقه ابن حبيب

ساعدت عدة عوامل على امتلاك ابن حبيب لثقافة عميقة أهلته لأن يكون عالم المائة الثالثة في الغرب الإسلامي من غير منازع، ومن هذه العوامل رحلته إلى المشرق وما تركته من آثار في حياته حيث أخذ عن فطاحل العلماء الذين كانت تزخر بهم بلاد المشرق آنذاك أمثال ابن الماجشون، أسد بن موسى، بن أبي أويس، ابن عبد الحكم، أصبغ بن الفرج...، زد على هذا ما كان قد أخذه في بلاد الأندلس من علم على فقهاء أفذاذ كونوا شخصيته الفقهية مثل الغازي بن قيس، زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون، صعصعة بن سلام وغيرهم كثير، وكذلك معاصرتة وتولييه خطة الإفتاء والمشاورة مع شيوخه وأقرانه في الأندلس أمثال يحيى بن يحيى الليثي وغيره.

كل هذه العوامل تجمعت واتحدت وتعاونت في بناء شخصية فقيه الأندلس وعالمها ابن حبيب، فتعمق في كل أنواع المعارف من فقه، وحديث، وتفسير، ولغة، وتاريخ... وتشعبت آراؤه في القضايا الفقهية المطروحة واختلفت، فتارة كان يناصر المذهب المالكي في مسألة معينة وتارة كان يخالفه ويذهب مذهب الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية وما ذلك إلا لغزارة علمه، وسنتعرف في المبحثين الآتيين على آرائه الفقهية داخل المذهب المالكي وخارجه، وعلى ما انفرد به وما خالف به المالكية:

المبحث الأول : آراؤه داخل المذهب المالكي

من باب الإنصاف يمكن القول إن ابن حبيب هو من مؤسسي المنهج الفقهي داخل المذهب المالكي، ومؤلفه الواضحة في السنن والفقه شاهد على هذا التأسيس، حيث كان مرجعاً يرجع إليه واعتمد عليه من لدن الفقهاء الذين جاؤوا بعده، وتلقاه الخلف عن السلف وحظي بنفس الاهتمام الذي حظيت به المدونة إلى أن ظهر الاختصار والمختصرات في الفقه المالكي بعد القرن الرابع الهجري فتناوله الناس بالشرح والاختصار.

لقد وجه ابن حبيب بوضوحته الفقه المالكي نحو الوجهة التي أعطته دعماً وصموداً عبر التاريخ رغم ما حيك عن هذا الفقه وعن رجالاته من اضطهاد في بعض الأحيان.

كان ابن حبيب بآرائه مدافعاً عن مذهب مالك ومناصباً له حتى إن ابن الفرضي ذكر أن عبد الملك بن حبيب كان يعذل أبا كنانة على انحرافه عن مذهب أهل المدينة وتمسكه برأي الأوزاعي فكان يقول له: «حسدتني إذا انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد» (189)

فبروز الفقه المالكي في الغرب الاسلامي على يد أمثال ابن حبيب هو في الواقع ظهور حضارة جديدة في هذه المنطقة.

لقد كان الفقهاء، والقضاة، والمفتون، والمشاورون، يجرون أحكامهم وفق المذهب المالكي الذي كتب له أن يسود هذه المنطقة من العالم الإسلامي، ألا أنه في بعض الحالات النادرة كانت تصدر من بعض الفقهاء فتاوى فيها خروج عن المذهب. فكان ذلك يلقي معارضة شديدة من طرف الفقهاء، ويمكننا أن نسجل هنا ما أورده الإمام الشاطبي في الموافقات: «وحكى أحمد بن عبد البر أن قاضياً من قضاة قرطبة كان كثير الاتباع ليحيى بن يحيى لا يعدل عن رأيه إذا اختلف عليه الفقهاء، فوقعت قضية تفرد فيها يحيى، وخالف جميع أهل الشورى فأرجأ القاضي القضاء فيها حياءً من جماعتهم، وردفته قضية أخرى كتب بها إلى يحيى، فصرف يحيى رسوله، وقال له: لا أشير عليه بشيء إذ توقف على القضاء لفلان بما أشرت عليه، فلما انصرف رسوله وعرفه بقوله قلق منه، وركب من فوره إلى يحيى وقال له: لم أظن أن الأمر وقع منك هذا الموقع وسوف أقضي له غداً إن شاء الله، فقال له يحيى: وتفضل ذلك صدقاً؟ قال نعم، قال له: فالآن هيّجت غيظي، فإني ظننت إذ خالفني أصحابي أنك توقفت مستخيراً لله متخيراً في الأقوال، فأما إذا صرت تتبع الهوى وتقضي برضى مخلوق ضعيف فلا خير فيما تجيء به، ولا في إن رضيت منك، فاستعف من ذلك

فإنه أستر لك، وإلا رفعت في عزلك، فرفع يستعفي فعزل» (190).

لم تخرج اختيارات ابن حبيب الفقهية واجتهاداته عن أصول مذهبه اللهم إلا ما ورد من مخالفته لبعض الأمور في المذهب، وهذه المخالفة نابعة من كثرة اطلاعه وتمرسه بأصول مذهب مالك، فلم يكن قصده من تلك المخالفة الاحتجاج على المذهب بل كان قصده بناء المذهب على معان تأدت له. يقول القاضي عياض: «ومنهم من تنقل عنه الاختيارات في شروحات أفرادها، وجوابات لمسائل سئل عنها، ومنهم من كان قصده الذب عن المذهب فيما فيه الخلاف، إلا ابن حبيب فإنه قصد إلى بناء المذهب على معان تأدت إليه، وربما قنع بنص الروايات على ما فيها» (191).

ولا بأس أن نعطي بعض النماذج الفقهية مختارة من نصوص ابن حبيب وآرائه داخل المذهب المالكي:

1 - قال ابن حبيب: «ولأب أن يزوج البكر بربع دينار وإن كان صداق مثلها ألفا» (192).

2 - هل يتيمم الصحيح في الحضر لخوف خروج الوقت؟ «ذكر ابن حبيب عن مالك أنه يتيمم ويصلي ثم يعيد في الوقت وبعده، قال: لم رجع مالك عن قوله في الإعادة بعد خروج الوقت، قال ابن حبيب: وبذلك أقول لأنه حاضر ليس بمسافر.. قال: وكذلك أهل السجن يعيدون في الوقت إن تيمموا» (193).

3 - قال ابن حبيب: «أدنى الاعتكاف في الاستحباب يوم وليلة وأعلاه في الاستحباب عشرة أيام» (194).

(190) ن: الموافقات 136/4 وما بعدها، فقد ساق أمثلة أفتى فيها بعض فقهاء الأندلس بقول أهل العراق، ولقيت تلك الفتاوى معارضة من طرف فقهاء الأندلس. (191) المدارك 169/4. (192) اختصار النهاية والتمام للمتطي. مخ خ ع رقم 3008 ص: 9 وهذا هو مذهب مالك في أقل الصداق لقول ابن عاصم:

ربيع دينار أقل المصدق وليس لأكثر حد ما ارتقي

(193) اختلاف أقوال مالك وأصحابه لابن عبد البر مخ خ ع رقم 3369 ك ص: 22. (194) البيان والتحصيل 307/2 وانظر القوانين الفقهية لابن جزي ص: 85 ورسالة ابن أبي زيد القيرواني

4 - قال ابن حبيب: «ويفسخ نكاح السر وإن دخل إلا أن يتطول الدخول فلا يفسخ» (195).

5 - قال أبو عمر: لا أعلم خلافاً عن مالك وأصحابه وسائر فقهاء الأمصار من أهل الحجاز، والعراق، والشام أن من أوقف دابته في موضع ليس له أن يوقفها فيه، ولا يجوز له ذلك من طريق ضيق أو غير ذلك مما ليس له أن يفعله، فجنت جناية أنه ضامنهما، وإن أوقفها في موضع يعرف الناس مثله توقف فيه الدواب، أو يوقف مثلاً فيه دابته، قال ابن حبيب: نحو دار نفسه أو باب المسجد، أو دار العالم أو القاضي، أو ما أشبه ذلك فلا ضمان عليه فيما جنت» (196).

6 - قال ابن حبيب: «ويغسل أحد الزوجين الآخر والميت منهما عريان» (197).

7 - روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك أن الحالف في القسم يقول بالله الذي أحى وأمات، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة» (198).

المبحث الثاني : آراؤه خارج المذهب المالكي

كان القرن الثالث الهجري أكثر إنتاجاً وتأليفاً من القرون التي جاءت بعده، حيث تميز بكثرة التدريس والتأليف وكثرت فيه المناظرات وظهرت فيه الكتب الخاصة بالمذاهب الفقهية (الموطأ، الأم والرسالة، المسند...)، وتشعبت المعارف في هذا القرن واختلفت وكان ذلك سبباً في ازدهار ورقي العلوم، إذ لم يكن ذلك الاختلاف وذلك التشعب في الرأي مدعاة للتفرقة، بل كان حافزاً للنهوض بالحركة العلمية في هاته الفترة.

بدأ الخلاف في هذا القرن يكثر وروده في كتب الفقه، ولكن هذا الخلاف هو اختلاف في الفروع لا في الأصول، فهو خلاف معتبر مستمد

(195) جامع ابن يونس 122/3 هذا قول مالك وأصحابه.

(196) التمهيد 27/1 - 28.

(197) المنتقى 4/1 وقال ابن جزي في القوانين الفقهية ص: 63 «ويغسل كل واحد من الزوجين صاحبه إذا اتصلت العصمة إلى الموت»، وانظر الكافي لابن عبد البر ص: 82 «وتغسل المرأة زوجها ويغسلها، غسلت أسماء بنت عميس أبا بكر وغسل علي فاطمة» والموطأ 185/1 «كتاب الجنائز».

(198) البيان والتحصيل 29/16.

من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى ضوء القواعد الشرعية المقررة والمقاييس اللغوية المعتمدة التي تقوم على استقرار العلماء الثقاة من أبناء هذه الأمة المباركة (199)

أما الخلاف الذي يقوم على اتباع الهوى والتعصب الأعمى من غير ما بينة ولا حجة ولا برهان فهو خلاف مذموم مردود يرفضه الإسلام وينبذه.

ولقد ظهر الخلاف في المذهب المالكي كما ظهر في باقي المذاهب الأخرى، ولذا عد أصحاب أبي حنيفة من المجتهدين اجتهاداً مطلقاً مكانتهم في الاجتهاد كمكانة أبي حنيفة، أما أصحاب مالك وكما يقول الأستاذ علي الخفيف: «لم يكونوا بهاته المكانة، بل يعدون من المجتهدين في المذهب إذ كان اجتهادهم محدوداً بحدود إمامهم، ولذا كانت خلافتهم معه دون خلاف أصحاب أبي حنيفة لإمامهم» (200).

ويمكن اعتبار فقيه الأندلس الذي نحن بصدد دراسته مجتهداً داخل المذهب وخارجه، فلقد خالف الإمام مالكا في كثير من القضايا، كما أنه انفرد بأمور داخل المذهب المالكي، ولهذا يقول القاضي عياض: «وكان إبراهيم بن قاسم يقول: رحم الله عبد الملك لقد كان ذاباً عن قول مالك، وإن خالفه في البعض، ما نزع إلا إلى الحق، ولا أخذ إلا بالصواب» (201).

وسنحاول في هذا المبحث التعرف على بعض الآراء الفقهية لابن حبيب خالف فيها المذهب المالكي.

الأمور التي خالف فيها ابن حبيب المذهب المالكي

تحفظ لابن حبيب بعض الآراء الفقهية التي خالف فيها الإمام مالكا ومذهبه وذهب فيها مذهب الحنفية، أو الشافعية، أو الحنبلية، أو الظاهرية. وإن هذا الخلاف لا يعد خروجاً عن جادة الصواب في المذهب المالكي، بل هو خلاف معتبر ناتج عن اتساع أفقه واتصالاته برجال المذاهب الأخرى

(199) الخلاف بين العلماء، ذ. محمد صالح العثيمين ص: 10.

(200) أسباب اختلاف الفقهاء ص: 273.

(201) المدارك 126/4.

أثناء رحلته إلى المشرق والتي تركت في نفسه أثراً فعالاً في تطور اتجاهه الفكري ومعرفته الدقيقة بالفقه وغيره من العلوم الشرعية.

فرغم مخالفته للإمام مالك في مسائل فقهية معدودة، فقد بقي مالكيّاً مدافعاً ومناصرّاً وذاباً عن مذهبه.

ومثل ابن حبيب في مخالفته للإمام مالك ومذهبه، مثل أبي يوسف في المذهب الحنفي مثلاً، والشافعي داخل المذهب المالكي عندما درس على الإمام مالك وأخذ عنه ولكنه خالفه وخرج بمذهبه المعروف بالمذهب الشافعي.

ولقد حفظت لنا بعض المؤلفات الفقهية بعض الآراء لابن حبيب خالف فيها الإمام مالكا رضي الله عنه، وسأعطي بعض الأمثلة التي اقتبسناها من كتب الفقه المالكي والتي تظهر فيها مخالفته للإمام مالك ولمذهبه:

1 - قال ابن حبيب: «آخر وقت الظهر مقدار ما يصلي الظهر فيتم صلاته قبل تمام القامة، وأول وقت العصر تمام القامة، قال الشيخ أبو محمد (202)، هذا خلاف قول مالك (203).

2 - قال ابن جزي: «وأما السنة فوضوء الجنب للنوم، وأوجبه ابن حبيب والظاهرية» (204).

3 - واختلف في تضمين صاحب الحمام ما ذهب من الثياب، قال مالك في المدونة: ولا ضمان عليه، وفي الموازية يضمن إلا أن يأتي بحارس فيسقط ضمانه، ويعود الخلاف في الحارس والموازية كالمدونة لا ضمان عليه، وقال ابن حبيب: يضمن (205).

4 - قال ابن العربي، المسألة السادسة في تأمين المصلي: ولا يخلو أن يكون إماماً أو مأموماً، أو منفرداً، فأما المنفرد فإنه يؤمن اتفاقاً، وأما

(202) المقصود بالشيخ «أبو محمد» عند المالكية: هو ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة في الفقه.

(203) المنتقى 13/1 وقال ابن أبي زيد في رسالته ص: 24: «وأول وقت العصر آخر وقت الظهر وآخره أن يصير ظل كل شيء مثليه بعد ظل نصف النهار» ن: الموطأ 7/1 «كتاب وقوت الصلاة».

(204) القوانين الفقهية ص: 19 ن: بداية المجتهد 9/1.

(205) شرح زروق على الرسالة 154/2.

المأموم فإنه يؤمن في صلاة السر لنفسه إذا أكمل قراعه، وفي صلاة الجهر إذا أكمل القراءة إمامه يؤمن، وأما الإمام فقال مالك: لا يؤمن، ومعنى قوله عنده إذا أمن الإمام: إذا بلغ مكان التأمين كقولهم أنجد الرجل إذا بلغ نجداً.

وقال ابن حبيب: يؤمن، وقال ابن بكير: هو بالخيار، فإذا أمن الإمام فإن الشافعي قال: يؤمن المأموم جهراً، وأبو حنيفة، وابن حبيب يقولان يؤمن سراً (206).

5- تارك الصلاة إن جحد وجوبها فهو كافر بالإجماع، وإن أقر بوجوبها وامتنع من فعلها فيقتل حداً لا كفراً وفقاً للشافعي، وقال ابن حبيب وابن حنبل: يقتل كفراً، وقال أبو حنيفة: يضرب ويسجن حتى يموت أو يرجع (207).

6 - في صفة صلاة العيدين: وهي ركعتان جهراً بلا أذان ولا إقامة، ويستحب أن يقرأ فيها يسبح ونحوها، واستحب الشافعي وابن حبيب بقاف والقمر (208).

7- في زمان الإمساك، وأوله طلوع الفجر الصادق الأبيض عند الجمهور وآخره غروب الشمس إجماعاً، فمن شك في طلوع الفجر حرم عليه الأكل وقيل يكره، وقال ابن حبيب والشافعي، وأبو حنيفة، وابن حنبل يجوز، فإن أكل فعليه القضاء وجوباً على المشهور وقيل استحباباً، وإن شك في الغروب لم يأكل اتفاقاً، فإن أكل فعليه القضاء والكفارة وقيل القضاء

(206) أحكام القرآن 154/2.

(207) القوانين الفقهية ص: 34، وعلق ابن رشد على قول ابن حبيب في قتل تارك الصلاة كفراً وقال: «ذهب ابن حبيب إلى أن من ترك الصلاة متعمداً لتركها أو مضيقاً لها أو متهاوناً بها فهو كافر على ظواهر الآثار الواردة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله أيضاً في أخوات الصلاة من الزكاة والصيام، واحتج بالمساواة بينهما وبينهن بقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وهو قول شاذ بعيد في النظر خطأ عند أهل التحصيل لأن الدلالة تمنع من حمل الأحاديث على ظاهرها فالقياس عليها لا يصح» البيان والتحصيل 395/16.

(208) القوانين الفقهية ص: 59.

فقط (209).

- 8 - وقد حكى ابن حبيب: أنه لا اختلاف في أن الضمان من المبتاع فيها يجوز فيه النقد، وليس ذلك بصحيح لما قد نص عليه في المدونة (210).
- 9 - احتج أصحاب الشافعي وابن حبيب على أن المتبايعين لهما الخيار في إمضاء البيع ونسخه ما دام في المجلس لقوله ﷺ: «البيعان (211) بالخيار ما لم يتفرقا...» (212) قال أصحاب أبي حنيفة: هذا خبر واحد فيما تعم به البلوى، فلا يقبل. وقال أصحاب الشافعي: إن خبر الواحد مقبول، وإنما لم يقل المالكية بالخيار لأن عمل أهل المدينة وهو حجة عندهم مرجح على خبر الأحاد* (213).

الأمر التي انفرد بها ابن حبيب

انفرد ابن حبيب في آرائه بقضايا فقهية أساسية، وهذا الانفراد في الرأي ناتج عن اجتهاده في المذهب المالكي وإحاطته بجميع جوانب العلوم الشرعية وحسبي في هذا المطلب أن أعطي بعض النماذج التي خرجتها من بعض كتب الفقه المالكي التي جاءت بعد ابن حبيب ونقلت عنه آراءه الفقهية ومن هذه النماذج ما يلي:

(209) نفسه ص: 81.

(210) البيان والتحصيل 131/7.

(211) البيعان: بتشديد الياء هما البائع والمشتري.

(212) أخرجه مالك في الموطأ، والبخاري في الصحيح، وأبو داود في السنن، والترمذي في سننه.

(*) وقد حرر الإمام القرافي في كتابه «الفروق»: الفرق السادس والتسعين والمائة بين قاعدة خيار المجلس وقاعدة خيار الشرط، انظر ذلك في 269/3 من الفروق.

(213) ن: مفتاح الوصول ص: 8، انتصار الفقير السالك ص: 223، المدخل إلى أصول الفقه المالكي ص: 13، المدارك 55/1، وحديث «البيعان بالخيار» أورده الإمام مالك في الموطأ 550/2 ولكنه لم يعمل به، عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار» قال: وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به فيه، وذكر صاحب انتصار الفقير السالك في ص: 224 أن رجلاً قال لمالك: لم رويت حديث البيعان بالخيار في الموطأ ولم تعمل به؟ قال له مالك: ليعلم الجاهل مثلك أنني على علم تركته»، قال ابن العربي في القبس 845/2: «فطن الجاهل المتوسمون بالعلم من أصحابنا أن مالكا إنما تعلق فيه بعمل أهل المدينة وهذه غباوة».

1 - واختلفوا في الزكاة في التين، والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم في التين، إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة قياساً على التمر والزبيب، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين، إسماعيل بن إسحاق القاضي ومن اتبعه (214) ..

2 - ولا تصلي المرأة متنتقة رواه ابن وهب عن مالك، زاد ابن حبيب ولا مثلثة (215).

3 - تؤدى الزكاة من تسعة أشياء: القمح، والشعير، والسلت، والأرز، والتمر، زاد ابن حبيب: العلس (216) فجعلها عشرة، وقال: إن أخرج الدقيق بريعه أجزأه وكذلك الخبز (217).

4 - قال ابن حبيب في جلود السباع العادية لا تباع ولا يصلى عليها ولا تلبس وإن ذكيت وينتفع بها فيما سوى ذلك (218).

5 - في تحديد غيبة الأب، قال بعض الموثقين: وأما تحديد غيبة الذي يجوز إنكاح ابنته فيها ليست بمحصورة إلا أن تكون غيبة انقطاع واستيطان، وحد ابن حبيب في ذلك العشرين سنة والثلاثين قال فضل (219): وما رأيت هذا التحديد لغيره (220).

6 - في استثناء البائع سكنى الدار المبيعة العام ونحوه: يجوز استثناء البائع سكنى الدار المبيعة العام ونحوه في قول ابن القاسم، وأجاز

(214) الجامع لأحكام القرآن 102/7 وقال مالك في الموطأ 232/1: «السنة التي لا اختلاف فيها عندنا والذي سمعت من أهل العلم، أنه ليس في شيء من الفواكه كلها صدقة، الرمان والفريسيك، والتين، وما أشبه ذلك وما لم يشبه إذا كان من الفواكه».

(215) المنتقى 33/1.

(216) قال الشيخ زروق في شرح رسالة ابن أبي زيد: «والقول في العلس لابن حبيب، ويسمى في جبال بلادنا «بتشتيت» بشين معجمة ونون بعدها نوقيتان بينهما تحتية» 242/1.

(217) المنتقى 88/2.

(218) نفسه 136/3.

(219) المقصود به فضل بن سلمة، وهو أحد الذين اهتموا بمؤلفات ابن حبيب ورواياتها، حيث اختصر الواضحة.

(220) معين الحكام لابن عبد الرقيق 217/1.

ابن حبيب السنتين(221)

7- قال ابن حبيب: وأما بنت الأخت فلا حضانة لها، والصواب أن لها الحضانة لأنها من نوات المحارم المحرمات(222).

8- الراكع عند مالك كالساجد وقال ابن حبيب كالجالس(223).

9- المغمى عليه إذا فاق فلا غسل عليه خلافاً لبعض المتقدمين وسواء طال به أو قصر خلافاً لابن حبيب لأنه معنى يزيل العقل فلم يوجب الغسل كالنوم والسكر(224).

اتضح في عرضنا لهذه القضايا الفقهية مدى انفراد ابن حبيب بآراء فقهية خاصة به، وهذا الانفراد في الرأي لا يعد زيغاً أو خروجاً عن قواعد المذهب وأصوله، بل هو ناتج عن اجتهاده وإحاطته بالجوانب الفقهية كما سبق، وهذا ما جعله ينفرد بآرائه الفقهية والاجتهادية.

الأمور التي خالف فيها ابن حبيب بعض فقهاء المذهب المالكي

تبوأ ابن حبيب مكانةً عاليةً في الفقه المالكي؛ فلم يكن يقبل الأمور على عواهنها بل كان مجتهداً يرجح ويقرر ويأخذ بما هو حسن في رأيه، وهذا ما لاحظناه من خلال استعراضنا لبعض القضايا الفقهية التي انفرد بها؛ فجاءت آراؤه في الفقه ناصعة قوية لها دلالتها في الأحكام، وتميزت بعض آرائه الفقهية باختلاف مع فقهاء المذهب حيث لم يسايرهم الرأي فيما يأخذون به بل خالفهم في قضايا فقهية عديدة، قال محمد بن حارث الخشني: «كان ابن حبيب كثيراً ما يخالف يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان في الفتيا عند الخليفة عبد الرحمن بن الحكم وعند الحكام، ويدفع عليهما وعلى أصحابهما، قال ابن وضاح: فشاور القاضي يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب فادعى عن أصبغ بن الفرغ المصري رواية في تلك القضية»(225)

(221) نفسه 393/2.

(222) البيان والتحصيل 415/5.

(223) الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب 21/1.

(224) نفسه 23/1. (225) أخبار الفقهاء والحديثين من: 258.

وقد حاولت تتبع آراء ابن حبيب الفقهية في كتب الفقه المالكي فتيين لي أنه يخالف فقهاء المذهب في أمور عديدة منها(226).

1 - تعجيل الخطبة بعرفة: قال ابن حبيب يبدأ بالخطبة إذا زالت الشمس أو قبل الزوال بيسر قدر ما يفرغ من الخطبة وقد زالت الشمس، قال الشيخ أبو محمد وفي قول ابن حبيب هذا نظر، وقد قال أشهب في كتابه إذا خاطب قبل الزوال لم يجزه وليعد الخطبة إلا أن يكون صلى الظهر يريد بعد الزوال فتجزئه.. والذي يتحقق من الخلاف بين ابن حبيب وأشهب، أن ابن حبيب يرى أن يأتي بالخطبة قبل الزوال، وأشهب يمنع من ذلك ويرى إعادتها لمن فعل ذلك إلا أن يفوت بفعل الصلاة، والصلاة لا تكون إلا بعد الزوال على كل حال..(227).

2- الإجارة على الأذان والصلاة: الإجارة على الأذان والصلاة في عقد واحد جائزة، رواه ابن القاسم عن مالك في المدونة، وأجاز ابن عبد الحكم الإجارة على صلاة الفريضة، وروى علي بن زياد عن مالك إجازة ذلك في الفرض أيضاً، وروى ابن الماجشون عن مالك جواز ذلك في النفل في رمضان، ومنع ابن حبيب الإجارة على الأذان(228).

3- ليس للراعي أن يسترعي غيره: وليس للراعي أن يسترعي غيره إلا بإذن أرباب المال، فإن استرعى فهلك منها شيء، ضمن عند ابن حبيب، وقال ابن لبابة: لا ضمان عليه(229).

(226) قد خالف الأندلسيون المذهب المالكي وبعض فقهاء في قضايا كثيرة منها ما قاله بعضهم:

قد خولف المذهب بالأندلس في ستة منهن سهم الفرس
وغرس الأشجار لدى المساجد والحكم باليمين قل والشاهد
وخلطة والأرض بالجزء تلي ورفع تكبير الأذان الأول

ن: هذا الخلاف في كتاب التنبيه والإعلام لليفرني ص: 293 وما بعدها المطبعة الحجرية بالقرويين بفاس رقم 14306، وميارة الفاسي على التحفة 21/1 وما بعدها.

(227) المنتقى 25/3.

(228) معين الحكام 484/2.

(229) نفسه 484/2.

4 - لا يمكن القاضي من تجريح الشاهد المبرز: ولا يمكن القاضي من تجريح الشاهد المبرز في العدالة البائن الفضل بعداوة ولا غيرها، رواه أشهب عن مالك وأخذ به، وقاله سحنون، وقال أصبغ يمكن من إسقاط شهادته بالعداوة، وأما أن يجرحه بالإسقاط فلا، وقال مطرف وأصبغ وابن حبيب يجرح بالإسفاف والعداوة من هو فوقه ومثله ودونه، وقال ابن الماجشون: لا يجرحه من هو دونه إلا بالعداوة، ويجرحه من هو فوقه ومثله بالإسفاف والعداوة. (230).

5 - جامع البيوع: قال محمد بن رشد لعبد الله بن نافع في المدينة إنه لا يجوز أن يباع حمام البرج جزافاً (231) لأنه من الغرر، ولا يباع إلا عدداً، فقيل إن ذلك مثل قول ابن حبيب في الواضحة في أنه: لا يجوز أن يباع الطير أحياء في الأقفاص جزافاً لأنه يتداخل بعضه في بعض فلا يحيط البصر به، وأن قول ابن القاسم في حمام البرج خلاف قول ابن حبيب في طير الأقفاص (232).

6 - وأما المستند فقال مالك هو كالجالس، وقال ابن حبيب: هو كالمضطجع، وأشار إليه أشهب عن مالك (233).

7 - روي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: كان رسول الله

ﷺ: يتبرز لحاجته فأتيه بالماء فيتغسل به» (234).

اختلف الناس في هذه المسألة فالذي عليه الجماهير من السلف والخلف، وأجمع عليه أهل الفتوى من أئمة الأمصار أن الأفضل أن يجمع بين الماء والحجر فيستعمل الحجر أولاً لتخفف النجاسة وتقل مباشرتها

(230) نفسه 653/2.

(231) بيع الجزاف: هو بيع الشيء بلا كيل ولا وزن ولا عد، دليل السالك ص: 41.

(232) البيان والتحصيل 19/8.

(233) الإشراف على مسائل الخلاف 22/1.

(234) أخرجه البخاري بلفظ آخر عن أنس بن مالك قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج لحاجته أجيء أنا وغلام معنا أداة من ماء، يعني يستنجي به «كتاب الوضوء»، «باب الاستنجاء بالماء» 57/1 رقم 150.

بيده ثم يستعمل الماء فإن أراد الاقتصار على أحدهما جاز الاقتصار على أيها شاء سواء وجد الآخر أو لم يجده فيجوز الاقتصار على الحجر مع وجود الماء ويجوز عكسه فإن اقتصر على أحدهما فالماء أفضل من الحجر لأن الماء يطهر المحل طهارة حقيقية، وأما الحجر فلا يطهره وإنما يخفف النجاسة ويبيح الصلاة مع النجاسة المعفو عنها، وبعض السلف ذهبوا إلى أن الأفضل هو الحجر، وربما أوهم كلام بعضهم أن الماء لا يجزئ، وقال ابن حبيب المالكي: لا يجزئ الحجر إلا لمن عدم الماء وهذا خلاف ما عليه العلماء من السلف والخلف وخلاف ظواهر السنن المتظاهرة (235).

مخالفة ابن حبيب للمشهور من المذهب المالكي

للفقهاء في تعريف المشهور أقوال منها:

أ - أنه ما قوي دليله فيكون بمعنى الراجح.

ب - أنه ما كثر القائلون به وهو المعتمد.

ج - وقيل إنه رواية ابن القاسم عن الإمام مالك في المدونة (236).

هناك مجموعة من المسائل الفقهية المشهورة في المذهب المالكي، والتي اشتهرت بين فقهاء المذهب وكثر القائلون بها، وتداولوها، واعتمدها في النوازل والقضايا التي كانت تطرح داخل المجتمع نظراً لشهرتها وقوتها بين الفقهاء في الاستدلال.

ومن خلال تتبعي لآراء ابن حبيب في الفقه، رأيت أنه يخالف هذه القاعدة في المذهب المالكي، ويبدى رأيه ويجتهد.

وسأبين فيما يلي بعضاً من الأمثلة خالف فيها المشهور من المذهب المالكي:

1 - المشهور من المذهب المالكي أن أقل مدة الطهر خمسة عشر يوماً، وخالف ابن حبيب هذه القاعدة، وقال: إن أقل مدة الطهر عشرة أيام (237).

(235) ن: النووي على مسلم 162/1.

(236) دلائل السالك ص: 18، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير 20/1.

(237) ن: قواعد المقرئ 343/1 بتحقيق أحمد بن حميد، شرح زروق على الرسالة 85/1، الذخيرة 10/1.

2 - المفقود في قتال المسلمين في الفتن التي تكون بينهم فيه ثلاثة أقوال في المذهب المالكي:

3 - أحدهما: أن حكمه حكم المفقود في غير المعترك، وثانيهما أنه يؤجل سنة ثم تعتد امرأته بعدها وتزوج إن شاعت، ويوقف ماله إلى انقضاء مدة التعمير (238) وهو قول ابن حبيب: والثالث: وهو المشهور المعروف من مذهب مالك أنه يحكم بموته يوم القتال فتعتد امرأته من ذلك اليوم ويرثه ورثته الأحياء يومئذ من غير ضرب الأجل (239).

4 - المشهور في المذهب المالكي أن تارك الصلاة يستحق الزكاة، وجاز إعطاؤه إياها على وجه خلاف الأولى، والأولى إعطاؤها للمصلي، هذا هو المشهور، وقال ابن حبيب لا يعطى تارك الصلاة من الزكاة (240).

5 - اختلف في بيوع الجراف مع العروض على ثلاثة أقوال: أحدها: أن ذلك لا يجوز وإن كان الجراف على غير الكيل، وهو مذهب ابن حبيب، والثاني: أن ذلك جائز إن كان الجراف على غير الكيل، ولا يجوز إن كان على الكيل، وهو قول ابن القاسم في هذه الرواية والمشهور في المذهب (241).

6 - في صلاة الخسوف: قال ابن أبي زيد: ولمن شاء أن يصلي في بيته مثل ذلك أن يفعل يعني على المشهور، خلافا لابن حبيب في اشتراط الجماعة (242).

ابن حبيب والإفتاء

تعتبر خطة الإفتاء من أهم الخطط الشرعية إلى جانب خطة الحسبة والقضاء والشرطة والمشاورة، فقد انتشرت هذه الخطط في المجتمع الأندلسي وكانت تنظم جميع مجالات الحياة، وكان لا يتولاها إلا من كان له مكانة علمية بين أقرانه الفقهاء ورجال الحكم.

(238) مدة التعمير: ثمانين سنة وهو المختار في المذهب ن: أحكام المألقي ص: 437.

(239) فتاوى عيش 22/1.

(240) نفسه 162/2 بقليل من التصرف، وقال ابن رشد: هذا على أصله أنه كافر وهو بعيد.

(241) البيان والتحصيل 25/8.

(242) شرح زروق على الرسالة 262/1.

وقد تولى ابن حبيب خطة الإفتاء وكان فيها مثلاً يحتذى، إذ تدلنا فتاواه أن مواقفه في خطة الإفتاء كانت مواقف العلماء الفطاحل، وسنرى في المبحثين الآتين طبيعة الإفتاء عند ابن حبيب، وهل سائر بإفتائه واقع مجتمعه سياسياً، اجتماعياً، اقتصادياً؟

المبحث الأول : طبيعة الإفتاء عند ابن حبيب

الإفتاء هو الإخبار عن حكم شرعي لا على وجه الإلزام⁽²⁴³⁾ وحيث بالقيّد في هذا التعريف ليخرج حكم الحاكم عند من يرى أنه إخبار بحكم شرعي على وجه الإلزام⁽²⁴⁴⁾.

والإفتاء والفتوى شيء واحد فتطلق الفتوى ويراد بها الحكم الذي وقع الإفتاء به، فتوصف بأنها فتوى ضعيفة، أو مشهورة، والأحكام المفتى بها تسمى بالفتاوى والمسائل، والأجوبة، والنوازل والأحكام.

وقد جمع علماءنا رحمهم الله الفتاوى في مؤلفات خاصة لهذا الغرض، وعبروا عنها بعبارات مختلفة في تاليفهم، فنقرأ من المؤلفات هنا: أصول الفتيا للخشني، والأحكام للقاضي المالقي، ومسائل ابن رشد، وفتاواه إلى غير ذلك من المؤلفات التي ظهرت في مثل هذا الموضوع عبر تاريخ الفقه المالكي إلى يومنا هذا.

وقد حظيت خطة الإفتاء بقداسة واهتمام بالغين من طرف المجتمع الأندلسي إلى جانب الخطط الشرعية الأخرى، وكان الذي يتولى خطة الإفتاء يشترط فيه أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية ملماً بجميع قضايا المجتمع الأندلسي، لأن المفتي هو المرجع لجميع ما يطرأ داخل المجتمع من أحداث، ووقائع فهو مطالب بأن يجيب عنها ويجد لها الحل الملائم⁽²⁴⁵⁾.

وخطة الإفتاء تولاهما الرسول ﷺ بنفسه، فكان يسأل ويجيب بما

(243) مواهب الجليل 32/1.

(244) نفسه.

(245) الذي يمارس خطة الإفتاء لابد أن يفتي بالمشهور والراجح، ولا تجوز الفتوى بغير المشهور ولا بغير الراجح، وذكر عن المازري أنه بلغ رتبة الاجتهاد وما أفتى بغير المشهور، مواهب الجليل 32/1.

أُوحى إليه، ثم بعد وفاته تولاها أصحابه رضوان الله عليهم، كعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين وزيد بن ثابت، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن عمر (246).

لذا، فإن هذه الخطة من الخطط الشرعية الهامة والخطيرة في المجتمع لا يتقلدها إلا أولو العلم من الرجال، لأن المفتي: هو المجتهد أو الفقيه (247). الذي ينظر في الأحكام الشرعية ويستخرج منها الحلول الملائمة والصالحة لقضايا المجتمع، ولا يتصور في الحياة وجود عالم مفتي دون أن يكون له معرفة بالفقه، فالفقه والإفتاء شيئان متلازمان لا ينفصلان أبداً.

يقول ابن قيم الجوزية: «فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يعد له عدته، وأن يتأهب له أهْبَتُهُ، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به فإن الله ناصر وهادي» (248).

وحفظت لنا كتب الفقه المالكي فتاوى لفقهاء المغرب والأندلس بلغوا رتبة الاجتهاد المذهبي، وهي من الرتب السامية في الفقه لا يبلغها إلا من تبحر في الفقه كعلامة الأندلس ابن حبيب.

فقد ساد في عصره فقهاء مفتون كان يرجع إليهم في معرفة الأحكام الشرعية لما يطرأ داخل المجتمع من قضايا وأحداث.

وكان ابن حبيب من جملة الفقهاء الأندلسيين في القرن الثالث الهجري الذين مارسوا هذه الخطة ولم يثبت عنه من خلال ما اطلعنا عليه من الكتب التي ترجمت له أنه كان يتضجر أو يميل عن خطة الإفتاء، بل مارسها وأبدى رأيه في كثير من المسائل ووقف في بعضها موقف العالم القائم على حدود الله، ولذا ومن خلال استقرائي لبعض فتاويه التي وقفت عليها، وجدتها تتميز بما يلي:

(246) أعلام الموقعين 12/1.

(247) الإحكام للأمدى 167/3، وأشار الدكتور وهبة الزحيلي: إلى أن هناك فرق بين الاجتهاد والإفتاء، فالاجتهاد استنباط الأحكام، سواء أكان سؤال في موضوعها أو لم يكن، أما الإفتاء فإنه لا يكون إلا إذا كانت واقعة وقعت ويتعرف للفقيه حكمها، أصول الفقه الإسلامي 1156/2.

(248) أعلام الموقعين 11/1.

- 1 - يلاحظ في فتاوى ابن حبيب اقتفائه منهج الصحابة والتابعين في الفتوى من خلال تعليقه واستدلاله بأرائهم.
 - 2 - يلاحظ كذلك ظهور ما يسمى بالنزعة المالكية في فتاويه، فكثيراً ما يستدل في فتواه برأي مالك، وبشيوخ المذهب المالكي المتقدمين.
 - 3 - استناده في إفتائه إلى واقع وطبيعة المجتمع الأندلسي في عصره، من خلال استدلاله بوقائع من داخل المجتمع.
- وحتى يتضح المجال أكثر في طبيعة الإفتاء عند ابن حبيب لابد من الإشارة إلى نماذج من فتاويه:

النموذج الأول: سئل ابن حبيب عن رجل ترك مطمورة له مفتوحة وقع فيها خنزير فوجد ميتاً، هل يجوز بيع هذا الطعام من نصراني؟ فقال: لا يجوز بيعه من مسلم، ولا نصراني، ولا يزرعه صاحبه ولا ينتفع به، ويغيبه عن النصارى حتى لا ينتفعوا به (249).

النموذج الثاني: سئل ابن حبيب عن رجل زوج عبده أُمته ثم يخرج العبد في سفره فيبيع السيد الأمة من رجل فيطؤها المشتري فتحمل منه، وتلد أولاداً، أو لا تحمل، وهو قد استبرأها، أو لم يستبر وقد علم أن لها زوجاً أو لم يعلم، وهل على البائع والمشتري النكال؟

فقال: إن لم يبين له أن لها زوجاً، فذلك عيب يردها به المشتري وطئها أو لم يطأها، إلا أن تكون حملت منه بعد الاستبراء، فليس له أن يردها لأنها قد صارت أم ولد، وزوجها أحق بها بعد أن تضع حملها إلا أنها تعتق بموت سيدها إن كانت حملت من السيد، وإن لم يكن استبرأها فالولد للزوج، ولا تكون بذلك الولد أم ولد، وينكل المشتري إذا وطئها وهو يعلم ذلك، والنكال واجب على البائع، وعلى كل بائع مدلس (250).

النموذج الثالث : سئل ابن حبيب عن رجل مات فشهد رجلان أنه كان حنث في امرأته قبل موته بزمان هل ترث امرأته في المال شيئاً؟ وأي

(249) الأحكام للقاضي المالقي ص: 305.

(250) نفسه ص: 450-451.

عدة تعتد أعدة وفاة أو عدة طلاق؟.

فقال: إن كان الشهيذان حاضرين ولم يتكلما في ذلك حتى مات الرجل فإنهما يوجعان ضرباً ولا تجوز شهادتهما، قيل له: فإن كانا غائبين ثم قدما بعد وفاته؟، فقال: تجوز شهادتهما، وتكون عدة المرأة عدة طلاق، ويكون لها الميراث من ماله، قيل له: فلو كان الشهيذان غائبين فماتت المرأة ثم قدما فشهدا أنه كان طلقها البتة؟، فقال: تجوز شهادتهما ولا ميراث له منها، فقيل له: لم ورثت المرأة؟ ولا يرث الرجل؟، فقال: كذلك قال أهل العلم، ولأنه إذا ماتت المرأة فإنما شهدا على الرجل على شيء كان يجب له، وإذا مات الرجل فإنما شهدا على الرجل ولم يشهدا على المرأة (251).

النموذج الرابع : إفتاؤه بجواز شهادة الأسرى بعضهم لبعض بدار الحرب معللاً ذلك أن الشاهد محمول على العدالة حتى تعلم جرحته بظاهر قول عمر بن الخطاب: «المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً على شهادة زور» (252).

النموذج الخامس : إفتاؤه بجواز بيع الأترج والبطيخ جزافاً وإن اختلف أحاده في الكبر والصغر (253).

النموذج السادس : إفتاؤه في القصة المشهورة التي رفعت إليه، وملخصها أن المعروف بابن أخي عجب خرج مع قوم من العدول لحيازة مال فبدأ المطر فقال ابن أخي عجب: قد بدأ الخراز يرش جلوده، فقالوا له: اتق الله عز وجل، فلم ينهه ذلك عن إعادة قوله فشهدوا عليه، فأمر الأمير عبد الرحمن بحبسه، وأمر والي المدينة بإحضار الفقهاء واستفتاهم في أمره، وكان من ضمن هؤلاء الفقهاء عبد الملك بن حبيب، واختلفت فتاواهم فيه: فهناك من أشار بأنه يؤدب.. وهناك من أشار بغير ذلك، فغضب عبد الملك بن حبيب وأشار فيه بما يشار في الزنديق (254) وقال: يدفعه إلى الأمير

(251) الأحكام للقاضي المالقي ص: 451.

(252) المعيار 157/10.

(253) نفسه 293/6.

(254) الزنديق: هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر.

يكون دمه معصباً بي، فإن أخطأت فعلي خطأي، وإن أصبت فتشاب الإصابة للأمير أعزه الله، وقال لأصحابه ودمعه يسيل: سب رباً عبدناه ولا ننصره ما نحن له بعاشرين.. فخرج ابن أخي عجب ووقف على خشبة وهو يقول لعبد الملك: اتق الله في دمي أبا مروان، فإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعبد الملك يقول: «آلان وقد عصيت قبل» (255). فلم يزالا حتى صلب وقتل وانصرفا، وعزل القاضي الذي أفتى بعدم قتل من عرض سب الله تعالى (256).

النموذج السابع : إفتاؤه بنقل الصلاة من مصلى شقندة إلى مصلى المصاراة، ذلك أن الخليفة نقل المصلى إلى شقندة لقربه منه، ورفع الأمر إلى ابن حبيب فأفتى برد المصلى إلى المصاراة، لأن مصلى شقندة بعيد، والخطورة إليه على القنطرة مما يصعب، وذكر أنه مات في هذه القنطرة في عيد من الأعياد قوم وغرق مركب بأخرين، ووصف أن مصلى المصاراة متصلة بالنهر فمن كان في صدر الناس وعرض له عارض فاحتاج إلى تجديد وضوءه كان النهر منه قريباً، ومن كان في أخريات الناس وأراد مثل ذلك قريب منه الجنات، فأمر الخليفة رحمه الله بتحويل الصلاة إلى المصاراة (257).

هذه بعض نماذج ابن حبيب في الإفتاء حاولت استعراضها، وباستقراء لهذه النماذج يتبين أسلوب ابن حبيب في الإفتاء، ولهذا يمكن استنتاج من طريقته في الإفتاء ما يلي:

1 - استخدامه أسلوباً جديداً في الإفتاء، وهو أسلوب السؤال والجواب، سئل ابن حبيب فقال، وهذا الأسلوب تحول منهجي في طبيعة الإفتاء عند ابن حبيب في هذه الفترة، عكس ما كان سائداً قبله عند الإمام مالك، قلت رأيته..

(255) يونس 91/1 وتتمتها : «وكنتم من المفسدين».

(256) ن: هذه الفتوى في أخبار الفقهاء والمحدثين ص: 247-248 المدارك 132/4-133، وقد استدل بهذه الفتوى الوثني في المعيار 362/2 - «سكران يدعي الألوهية».

(257) أخبار الفقهاء والمحدثين ص: 247.

- 2- يظهر من خلال فتاوى ابن حبيب استقلاله الفكري، وشخصيته القوية، وهي شخصية العالم المجتهد، ويبدو هذا واضحاً في إفتائه بقتل ابن أخي عجب، وينقل المصلى إلى المصاراة في بلده.
- 3- نهج ابن حبيب في إفتائه ما يسمى في الوقت الحاضر بالمنهج الاستقرائي الذي يقوم على استقراء القضايا في المجتمع، وتتبع الجزئيات وإبداء الملاحظة، ثم المقارنة، ثم النتيجة، والنتيجة التي كان يتوصل إليها هو الحكم الشرعي في النازلة.
- 4- نالت فتاوى ابن حبيب عناية خاصة لم تظفر بمثلها فتاوى معاصريه، وتظهر هذه العناية في اهتمام الناس بها واعتمادها والاستشهاد بها في النوازل والأحكام، ولذلك يصادفك الكثير من فتاوى ابن حبيب التي أبدى فيها مواقف لدى علماء المذهب.
- 5- انصبت فتاوى ابن حبيب على النظر في واقع المجتمع وقضاياها، وسنرى في المبحث الموالي، هل سائر ابن حبيب بإفتائه واقع مجتمع عصره؟

المبحث الثاني: هل سائر ابن حبيب بإفتائه واقع مجتمعه؟

إن الجواب عن هذا السؤال يقتضي منا الرجوع إلى طبيعة إفتائه، لنرى أن هناك فتاوى عالج بها ابن حبيب واقع مجتمعه.

فبعدما رجع من رحلته إلى الأندلس، ووصل أمره إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم نقله إلى قرطبة ورتبه في طبقات المفتين هناك إلى جانب أكابر علماء عصره، يحيى بن يحيى الليثي وغيره، وعرفت مكانته قيمة خاصة لدى الأمراء والفقهاء.

وبتقلد ابن حبيب خطة الإفتاء يبين مدى إحاطة الرجل الشاملة بالفقهاء المالكي خصوصاً، وواقع مجتمعه عموماً، ويبين كذلك مدى وثوق مستفتيه بإفتائه، ومدى معالجته بفتاويه واقع مجتمعه السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي.

كان ابن حبيب مفتياً ماهراً يفتي فيما يرفع إليه من قضايا، ويجد

الحل المناسب لها بأسلوب الإقناع، كما في إفتائه بنقل مصلى العيد من شقنדה إلى المصاراة، وكما في إفتائه في قتل ابن أخي عجب، وكما في إفتائه بجواز شهادة الأسرى بعضهم لبعض في دار الحرب، وكما في إفتائه كذلك بجواز بيع الأترج والبطيخ جزافاً، وهي فتاوى تبين معرفة الرجل الدقيقة بواقع مجتمع عصره.

ومما سبق يمكن أن نقول إن ابن حبيب قد عالج بإفتائه واقع مجتمعه سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً وفتاواه يمكن أن يكتب عنها أنها وثيقة تاريخية تبين نمط الحياة في عهد الدولة الأموية بالأندلس، من تصوير البيئة والكشف عن خبايا المجتمع ومشاكله وأسواره في ذلك العهد.

فكل نازلة كانت تطرح عليه كان يرجع فيها إلى واقع المجتمع وإلى عرف البلد وواقع الناس، وعاداتهم. فلقد وقع خلاف بين فقهاء المذهب المالكي في عصره حول تنظيف المراحض في الدار المكتراة على من تجب؟ فقال ابن القاسم تجب على أرباب الدار، وروى عنه أبو زيد بن أبي الغمر: إن كنسها على الساكن، إلا أن تكون الدار من دور الفنادق التي يخرج قوم ويدخل قوم، فيكون الكنس على رب الدار، وقال ابن حبيب يحملون على سنة الناس ببلدنا، وسنتهم ببلدنا أن يكون ذلك على رب الدار (258).

فقوله على «سنة الناس ببلدنا»، دليل على اهتمامه ومعرفته الدقيقة بواقع المجتمع وحال الناس وعاداتهم وأعرافهم الاجتماعية.

إذن، فابن حبيب لم يكن منغلطاً على نفسه أو متعصباً أو مقلداً بل كان رجلاً اجتماعياً بكل معاني الكلمة، كان يعمل النظر ويستقرئ القضايا التي كانت تطرح، ويتوسع في إصدار الفتاوى التي كانت تعرض على القضاء من عبادات، ومعاملات، فأقام بفتاويه مذهباً فقهياً متكاملًا.

ولهذا، ونظراً لقيمة فتاوي ابن حبيب اعتمدها من جاء بعده واستعان بها في الاستدلال على القضايا والنوازل، وممن اعتمدها صاحب النوازل

والزيادات، وصاحب أصول الفتيا، والقاضي المالقي في الأحكام، وابن رشد في فتاويه... وغيرها من كتب المذهب التي ضمن فيها أصحابها فتاوى لابن حبيب، تقديراً منهم لهذه الشخصية التي قدمت للفقه المالكي ولحضارة الغرب الاسلامي الشيء الكثير.

ابن حبيب والاجتهاد

الاجتهاد في اللغة هو بدل الطاقة فيما فيه مشقة (259)، يقال اجتهد في حمل قنطار من القمح ولا يقال اجتهد في حمل عصاه. وفي اصطلاح علماء الأصول عرف بتعاريف عديدة منها تعريف الأمدى بقوله: «الاجتهاد هو استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه» (260). وقد دلت أدلة كثيرة على اعتبار الاجتهاد من أصول الشريعة الإسلامية إما بطريق الإشارة أو بطريق التصريح، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (260) فإن هذه الآية تتضمن إقرار الاجتهاد بطريق القياس (262).

لقد كان الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم يجتهدون كل حسب القضايا التي كانت تستجد بمصره، حتى إنه نشأت في تاريخ الإسلام مدرستان مختلفتان: مدرسة أهل الرأي في بلاد العراق، وزعيمها أبو حنيفة النعمان، ومدرسة أهل الحديث والأثر في بلاد الحجاز، وزعيمها الإمام مالك رحم الله الجميع.

فكان كل من ينتسب لإحدى المدرستين يجتهد حسب أسس مدرسته ومنهجها في التفكير واستنباط الأحكام، لذلك أطلق بعض الباحثين المعاصرين على الاجتهاد في هذه المرحلة اسم «الاجتهاد المطلق» (263).

(259) فتح الودود على مراقي السعود للولائي ص: 376.

(261) النساء 105/.

(260) الإحكام في أصول الأحكام 396/4.

(262) ن: أصول الفقه الإسلامي د. وهبة الزحيلي 1039/2.

(263) وهو الدكتور حمادي العبيدي في بحثه القيم «نشأة الفقه المالكي وأطواره» ن: مج الهداية ع 1991/1

ص: 44-51.

واستمر اجتهاد الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم إلى نهاية القرن الأول الهجري، ولما جاء القرن الثاني الهجري ظهر جيل جديد هو جيل تابعي التابعين الذي أخذ يدرس الفقه باعتباره مادة علمية ويضيف إليه اجتهاده فيما جد من أحداث، حتى إذا تكونت لكل واحد منهم مادة فقهية جعل ينظر فيها ويوصل لها الأصول والقواعد فنشأت بذلك المذاهب الفقهية المختلفة⁽²⁶⁴⁾. وأطلق الشيخ محمد الفاضل بن عاشور على الاجتهاد في هذه المرحلة إسم «الاجتهاد المقيد»⁽²⁶⁵⁾، لأن تلاميذ كل مذهب كانوا يجتهدون في حدود مذهبهم ولا يخالفون المذهب في أي أصل من أصوله؛ فجيل تابعي التابعين هو جيل الأئمة العظام، والأئمة المنتسبين، ومجتهد المذاهب، وأهل الترجيح، كما أن هذا الجيل يتناول عهد تدوين المذاهب الفقهية على الصورة العلمية الدقيقة⁽²⁶⁶⁾.

ولما جاء القرن الثالث الهجري ظهر بعض تلاميذ الأئمة الأربعة الذين اجتهدوا في حدود مذهبهم، حيث كانوا يتفقون مع إمامهم في الأصول ولكنهم يختلفون في الفروع، ومن هؤلاء أبو يوسف، ومحمد، وزفر من المذهب الحنفي، وابن القاسم، وابن وهب من المذهب المالكي، والمزني من المذهب الشافعي، أما أصحاب الإمام أحمد كأبي بكر الأثرم، وأبي داود السجستاني، وأبي إسحاق الحربي فكانوا رواية فقط لأحاديثه وآرائه الفقهية، ولم يؤثر عن أحد منهم أنه خالف إمامه في أصل أو فرع⁽²⁶⁷⁾.

وابن حبيب في المذهب المالكي يمكن مقارنة اجتهاده بابن القاسم، وابن وهب، كان اجتهاده في الفروع الفقهية لا في الأصول، فلم يثبت عنه أنه خالف الإمام مالكا في أصل من أصول مذهب، وسنرى فيما يلي أهم المميزات التي طبعت اجتهاد الرجل من خلال المباحث الآتية:

(264) نفسه ص: 44.

(265) ن: المحاضرات المغربية ص: 75.

(266) نفسه.

(267) ن: الموسوعة الفقهية 32/1 ط. وزارة الأوقاف الكويت.

المبحث الأول : اجتهاد ابن حبيب داخل المذهب المالكي

إن أي مجتهد لابد وأن يتوفر على صفات الاجتهاد، ولقد حدد الأمدي هذه الصفات في العلم بوجود الله تعالى، وما يجب له من الصفات ويستحقه من الكمالات وأنه واجب الوجود لذاته... وأن يكون عالماً عارفاً بمدارك الأحكام الشرعية وأقسامها وطرق إثباتها، ووجوه دلالاتها على مدلولاتها، واختلاف مراتبها، والشروط المعتمدة فيها، وأن يعرف جهات ترجيحها عند تعارضها... (268).

وأرى - والله أعلم - أن ابن حبيب اتصف بهذه الصفات حيث كان مجتهداً يراعي في اجتهاده وجود الله تعالى، وكان عارفاً بالأحكام الشرعية ومدلولاتها على الأحكام، ويأخذ بها في إفتائه في النوازل التي كانت تحدث في المجتمع.

وإن مجتهد المذهب لابد وأن ينهج في اجتهاده منهج إمامه فلا يمكنه أن يحيد عن ذلك المنهج، بأي وجه من الوجوه، وإلا عد خارجاً عن المذهب. فعلى هذا المجتهد أن يطلع على ما أصله إمامه من قواعد مقررة ويلتزم بها، كما عليه أن يبذل ما في جهده أثناء عملية الاجتهاد لاستنباط الأحكام وتوظيفها في النوازل والقضايا التي تطرح، وإذا طبقنا هذه المعايير على صاحبنا ابن حبيب زيادة على ما وصفه الأمدي، نجده لا يحيد عنها في منهجه الفقهي، ذلك أن كل اجتهاداته واختياراته في الفقه المالكي لا تخرج عن إطار المذهب، وإن كان يخالف المذهب وفقهاء في مسائل متعددة سبقت الإشارة إليها، لأنه ليس من الضروري أن يتقيد المجتهد بقول إمامه في كل مسألة جزئية وإنما معناه أن يلتزم بمنهجه وبالأصول العامة التي وضعها للمذهب، ثم إنه بعد يوافقه أو يخالفه في الحكم الذي ينتهي إليه اجتهاده (269).

والمجتهد لابد وأن يكون عارفاً وعالماً بأحوال مجتمعه، لأنه هو المعبر

(268) ن: الإحكام في أصول الأحكام 397/4.

(269) ن: مع الهداية ع 1991/1 ص: 45.

عن خلجات ذلك المجتمع عن طريق الفتوى، ومن هنا يكون المجتهد هو ذلك الشخص الملم بعلوم الشريعة، ويسمى المجتهد أحياناً الفقيه، وقد يسمى المجتهدون أهل الرأي والاجتهاد، أو أهل الحل والعقد (270).

ومن خلال تتبعي لآراء ابن حبيب في كتب الفقه المالكي استخلصت من ذلك أن الرجل من أئمة الاجتهاد في المذهب المالكي، إلى جانب فقهاء المذهب الكبار أمثال يحيى بن يحيى الليثي، وسعيد بن حسان، وابن عبد الحكم، وأصبغ بن الفرج وغيرهم من أئمة المذهب المالكي؛ فهو مجتهد داخل المذهب باعتبار الأصول التي اتخذها الإمام مالك رضي الله عنه في فقهه، كالكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصلحة، والعرف، ومذهب الصحابي، ومراعاة الخلاف..

فهذه الأصول كثيراً ما تتردد في فقه ابن حبيب ويستند إليها في كثير من آرائه الفقهية، فكان اجتهاده يقوم على هذه الأصول، إلا أن الذي يجب التنبيه إليه أنه لم يتقيد بالإمام مالك في كل مسألة مسألة بل خالفه في قضايا كثيرة داخل المذهب وخارجه أشرت إلى بعض منها سالفاً.

ومما سبق يمكن اعتبار عبد الملك بن حبيب من أولئك الذين بلغوا درجة الاجتهاد المذهبي، ظهر ذلك في آرائه الفقهية الكثيرة والمتعددة في الفقه المالكي، وفي تأليفه لكتاب الواضحة الذي يعد بحق عصارة اجتهاده في المذهب المالكي، حيث اجتهد في كثير من الفروع الفقهية، وأضحت الواضحة مصدراً من مصادر الفقه المالكي، اعتمدها متقدمو المذهب ومتأخروه.

كان ابن حبيب عارفاً بأدلة مذهبه يرجح، ويقرر، ويقيس، ويختار، عارفاً بأوجه الخلاف وطرائقه، يأخذ بالقول الصائب، ويبدي رأيه فيه. وجعل الأصول التي وضعها الإمام مالك لمذهبه ضابطة لحجية ما يمكن أن يستخرج منه من الأحكام الشرعية التفصيلية والعملية والتشريعية (271)

(270) أصول الفقه الإسلامي 495/1.

(271) ن: المحاضرات المفرييات ص: 75.

يقول محمد الفاضل بن عاشور: «فإذا قيل إنهم مالكية، فإنهم مالكية في الأصول ومالكية في المنهج، ولكنهم لم يكونوا مقيدين كما يقيد المستفتي مفتيه، بأنهم كانوا ينظرون في الأدلة كما ينظر مالك، ويستخرجون منها الفروع كما يستخرج بدليل أنهم اختلفوا عن إمامهم اختلافًا واضحاً في مسائل كثيرة أصبحت هي قوام الدراسة الفقهية، ومع ذلك فإنهم فيما يرجع إلى حجية الأصول التي يرجع إليها في استخراج الأحكام الفرعية قد كانوا متبعين للطريقة الأصلية المنهجية التي وضعها مالك بن أنس استقراء من سير الفقه على عهد الصحابة وعهد التابعين رضي الله عنهم» (272).

ولذا يمكن تسمية ابن حبيب بالمجتهد داخل المذهب، ولكنه مجتهد مقيد في طريقته الاجتهادية وفي منهجه الأصولي بالإمام مالك رضي الله عنه، كما أن له اجتهادات خارج المذهب المالكي خالف فيها الإمام مالكا وبعض فقهاء المذهب، ولكن هذا لا يقدر في مالكيته، فرغم ذلك قد بقي ذاباً ومناصراً لمذهبه الأصلي ومجتهداً فيه، فلم يكن من المتعصبين للمذهب بل كان من المجتهدين الكبار يعمل النظر، ويرجع، ويأخذ بما يراه صائباً في نظره، وبذلك عد ابن حبيب من المجتهدين الكبار في المذهب المالكي إلى جانب يحيى بن يحيى الليثي، وسحنون القيرواني، ومن جاء بعدهما من فقهاء المذهب، كابن لبابة القرطبي، وابن زرب، وابن القابسي، وابن عبد البر، وأبي الوليد الباجي وغيرهم كثير من جهاذة المذهب والحاملين لواءه.

المبحث الثاني : هل ابن حبيب مجتهد أو مقلد؟

اختلفت آراء العلماء في التقليد (273) وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة بين مناصر للتقليد ومعارض له.

مذهب مالك وجمهور العلماء رضي الله عنهم وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد، وأنه يجب على من ليس فيه أهلية للاجتهاد أن يقلد أحد الأئمة المجتهدين سواء كان عالماً أو ليس بعالم، وقيل لا يقلد العالم، وإن لم يكن

(272) نفسه ص: 76.

(273) التقليد: هو الأخذ بقول الغير من غير معرفة دليله، مواهب الجليل 30/1.

مجتهداً لأن له صلاحية أخذ الحكم من الدليل. واستدل هؤلاء على إبطال التقليد بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (274).

وأسهب ابن قيم الجوزية رحمه الله الكلام على التقليد وأورد كلاماً فيه وقال في فصل: «وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة» (275).

إلا أنه يجوز للعالم أن يقلد من هو أعلم منه، ولا يجوز له أن يقلد من هو مثله (276) وقد صرح الإمام الشافعي رضي الله عنه بالتقليد فقال: «في الضبع بعير، قلته تقليداً لعمر، وقال في مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، قلته تقليداً لعثمان، وقال في مسألة الجد مع الإخوة إنه يقاسمهم، ثم قال: وإنما قلت بقول زيد وعنه قبلنا أكثر الفرائض» (277).

وهذا الإمام مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة، ويصرح في موطنه بأنه أدرك العمل على هذا، وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا (278).

ويقول الإمام الشاطبي: «فالملكف بأمور الشريعة إما أن يكون مجتهداً فيها أو يكون مقلداً صرفاً، أو يكون غير بالغ مبالغ المجتهدين» (279).

وابن حبيب كان مجتهداً بارعاً من أئمة الاجتهاد في المذهب، ولذلك يمكن تسميته كما سبق القول بمجتهد المذهب، لأن جل اجتهاداته في الفقه بنيت على أصول المذهب وعلى أقوال الصحابة والتابعين، وما أخذه بمسائل معينة في الفقه وذهابه فيها مذهب الحنيفة والشافعية أو الحنبلية أو الظاهرية إلا دليل على اجتهاده وإعماله للنظر والرأي، كما أن كتابه الواضحة بين فيه أصول الفقه واستنبط منه كثيراً من الفروع الفقهية وأعمل النظر فيها واجتهد، فجاءت آراؤه مبنية على أسس علمية واضحة

(274) ن: شرح تنقيح الفصول ص: 430 مواهب الجليل 30/1 والآية في سورة التغابن / جزء من الآية: 16

(275) ن: أعلام الموقعين 181/2، الاعتصام للشاطبي 343/2.

(276) أعلام الموقعين 185/2.

(277) نفسه.

(278) نفسه.

(279) الاعتصام 342/2 وما بعدها.

المعالم، وبالواضحة يكون قد ساهم في وضع اللبنة الأولى لبناء الفقه المالكي على قواعد لم يسبقه أحد إليها.

وهذه القواعد كانت تخدم المذهب المالكي حيث وظفها من جاؤوا بعده وأخذوا بها في آرائهم، إذ أن جميع الآراء الواردة في الواضحة استقاهها ابن حبيب من شيوخ المذهب.

أما عن كونه مقلداً فلا نعرف عنه شيئاً في هذا المضمار من كونه قلداً عاماً في مسألة معينة، كل ما هنالك أنه كان مقلداً لإمامه مالك صاحب المذهب وإن كان خالفه في بعض الأحيان، وهذه سمة جميع فقهاء المذاهب. ولهذا يصح ما قاله ابن خلدون: «وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل» (280).

وعلى هذا، فابن حبيب مجتهد، والمجتهد له ملكة الاقتدار على استنباط أحكام الفروع المتجددة التي لا تقل فيها عن صاحب المذهب من الأصول التي مهدها صاحب المذهب، وهو المسمى بمجتهد المذهب، والدليل على جواز ذلك وقوعه في كثير من الأعصار بلا نكير من المتبحرين في مذاهب جميع الأئمة (281).

(يتبع)

(280) المقدمة ص: 449.

(281) ن: أصول الفقه للخضري ص: 383.

ابن حبيب ومشاركته في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الغرب الإسلامي (2)

للأستاذ
الدريس احويلل

أثر ابن حبيب في الفقه المالكي

سلف الحديث أن ابن حبيب بلغ مرتبة الاجتهاد المذهبي، وسادت آراؤه الفقهية الأندلس والمشرق، ولقي تراثه الفقهي إقبالا وتقديرا عند الخاص والعام، وترك أثرا واضحا في حركة الفقه المالكي. وسنرى فيما يلي التأثير الذي تركه بأرائه ومؤلفاته في رواد الفقه المالكي :

المبحث الأول : تأثيره في تلاميذه ومعاصريه

يمكن عزو تأثير ابن حبيب على الحركة الفقهية المالكية إلى عاملين أساسيين :

العامل الأول : إن جميع فقهاء المذهب المالكي الذين جاؤوا بعد ابن حبيب اعتمدوا أقواله واجتهاداته الفقهية وضمنوها مؤلفاتهم، واستشهدوا بها، مما يدل على المكانة الفقهية التي حظي بها في تاريخ الفقه المالكي.

العامل الثاني : نظرا للمكانة التي حظي بها، فقد جعله علماء المذهب محل ثقة فيما نقله بإخلاص وأمانة من أقوال الإمام مالك، كما كانت مؤلفاته التي تداولها العلماء جيلا بعد جيل شاهدا على هذه الثقة.

إن تأثير ابن حبيب في تلاميذه ومعاصريه تأثير كبير كان سببا في أن يلقب باللقاب مختلفة كلها تشهد بقيمته ومزاياه، ومن هذه

الألقاب : "فقيه الأندلس"، "عالمها"، "عالم الدنيا"، "جوهرة البلدين إلى غير ذلك من الألقاب التي وصف بها، وهي ألقاب حميدة لا يتصف بها إلا من حباه الله بالعلم وغرس فيه بذرته.

لقد كانت له مكانة خاصة لدى فقهاء وأمرء الأندلس، فهذا الأمير عبد الرحمن بن الحكم يرتبه في طبقة المفتين في الأندلس⁽¹⁾، وحظي بتقدير كبير من طرف تلاميذه ومعاصريه، فالتفوا حوله، وبدأوا يأخذون منه فقهه وحديثه. وشهد له بالإمامة والاجتهاد غير واحد من علماء عصره ؛ فهذا خالد بن سعيد من معاصريه يقول : « لما قمت من عند محمد بن فطيس الليبري في سفرتي إليه الثانية اجتمعت مع محمد بن عمر بن لبابة، فجعل يسألني عن سماعي عن ابن فطيس فأخبرته. وكان فيما ذكرت له واضحة ابن حبيب فأعجب بذلك، وقال لي : لم يكن بالأندلس أفقه من عبد الملك بن حبيب ولا أعلم منه »⁽²⁾.

إذن، فتنوع اختصاصات ابن حبيب ومشاركته في جميع العلوم جعلت منه رجلا ذا تأثير قوي في تلاميذه ومعاصريه، حتى إن الذين ترجموا له لم يستطيعوا سرد جميع الذين أخذوا عنه وكانوا يكتفون بقولهم : وغيرهم كثير.

فتأثيره في تلاميذه ومعاصريه تأثير كبير. فقد راحوا ينشرون علمه ومؤلفاته في مصر، والعراق، والحجاز، وانتشرت الواضحة شرقا وغربا وتداولها الناس بعده بالدرس والاختصار والرواية عبر قرون عديدة، وما ذلك إلا لاحتوائه على علم غزير جعل الناس يكتفون له التقدير والاحترام في الغرب الإسلامي، والمشرق.

المبحث الثاني : تأثيره في رواد الفقه المالكي

سبق الكلام بإيجاز عن تأثير ابن حبيب في تلاميذه ومعاصريه، ويظهر تأثيره أكثر في رواد الحركة الفقهية المالكية، حيث نجد معظم الذين جاؤوا بعده ينقلون عنه، ويستدلون

(1) ن : المدارك 4 / 123.

(2) أخبار الفقهاء والمحدثين ص 248.

باختياراته واجتهاداته في الفقه، حتى إن الذين يعتبرون منظرين في المذهب المالكي قد أوردوا في مؤلفاتهم نقولا عديدة عنه، وذهبوا مذهبه في قضايا معينة، ومن هؤلاء نذكر ما قاله ابن رشد في مسألة الجنب من البيان والتحصيل «إذا لم يدرك جميع جسده فالصواب ما ذهب إليه ابن حبيب من أنه يمر يديه على كل ما أدركه من جسده ويوالي صب الماء على ما لم يدركه منه» (3).

وسأعرف في هذا المبحث ببعض فقهاء المذهب الكبار الذين لهم وزنهم وتأثروا به في اجتهاداتهم ومؤلفاتهم، حيث سأقسمهم الى مرحلتين : المرحلة الأولى من بداية القرن الرابع إلى نهاية القرن السابع الهجري، والمرحلة الثانية من بداية القرن الثامن إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

المرحلة الأولى : من بداية القرن الرابع إلى نهاية القرن السابع الهجري

يلاحظ المتتبع لهذه المرحلة من تاريخ الفقه المالكي، نمو وازدهار المؤلفات الفقهية في المذهب المالكي، في المشرق وفي الغرب الإسلامي، حيث نجد ممن مميزات هذه المرحلة كثرة الشروح، والتأليف، والاختصار، والتخريج للمسائل الفقهية وتطبيقها على مستجدات العصر، وكذلك ظهور علماء وفقهاء أجلاء فضلاء اجتهدوا في المذهب المالكي، وساهموا مساهمة فعالة في إثراء الخزانة المالكية بمؤلفاتهم وآرائهم، وسأقتصر على بعض رواد هذه الحركة الذين تأثروا بابن حبيب وبآرائه، ومن هؤلاء نذكر :

1 - الخشني : (ت 361 هـ) (4).

هو محمد بن حارث بن أسد الخشني أبو عبد الله. تفقه بالقيروان على أحمد بن نصر، وأحمد بن زياد وأحمد بن يوسف، وابن اللباد وغيرهم، له مؤلفات عديدة قد طبع بعضها. من مؤلفاته الفقهية التي ضمنها آراء ابن حبيب وفتاواه، كتاب أصول الفتيا في الفقه على مذهب الإمام مالك (5).

(3) 50/1.

(4) المدارك 266/7، بغية الملتبس ص 71.

(5) ن مثلا : ص 53، 54، 55، 57...

2 - ابن أبي زيد القيرواني : (ت 368 هـ) (6).

أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني نفزي النسب كان إمام المالكية في وقته وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، وكان يسمى بمالك الصغير. أخذ عن محمد بن مسرور العسال، وزيايد بن موسى، والقطان وغيرهم، وعنه أبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو القاسم البرادعي، والليدي، وأبو مروان القنازعي وغيرهم كثير. ... من مؤلفاته النوادر والزيادات استقى جل معلوماته الفقهية من كتاب الواضحة لابن حبيب، حيث جعل الواضحة مصدرا من مصادر الكتاب، وكذلك كتابه الجامع الذي نقل فيه كثيرا من آراء ابن حبيب (7).

3 - ابن أبي زمنين : (ت 399 هـ) (8).

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زمنين المري القرطبي، الفقيه المالكي، تفقه بأبي إبراهيم بن مسرة، وهب ابن مسرة، وأحمد بن مطرف وأبان بن عيسى وغيرهم، وعنه يحيى بن يحيى المعروف بالقليعي، وأبو، عمر بن الحذاء، والقاضي يوسف، وأبو عبد الله بن الحصار وجماعة. من مؤلفاته تفسير القرآن العظيم وقدوة الغازي وغير ذلك، أخذ عن ابن حبيب كثيرا من أقواله (9).

4 - ابن العطار : (ت 399 هـ) (10).

أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن العطار الأندلسي الإمام الفقيه، العالم، أخذ عن جماعة منهم أبو عيسى الليثي، وأبو بكر بن القوطية، وعنه أخذ ابن الفرضي وغيره، من مؤلفاته الوثائق والسجلات اعتمد فيه على أقوال ابن حبيب في الوثائق كثيرا (11).

(6) الفهرست ص 253، المدارك 215/7 - 221، شجرة النور ص 96.

(7) ن : دراسات في مصادر الفقه المالكي ص 69، 70، 103، 105، وانظر كتاب الجامع بتحقيق د. عبد المجيد تركي ص 268، 324.

(8) بغية الملتبس ص 77، شجرة النور ص 11، تاريخ التراث العربي 79/1.

(9) ن : قدوة الغازي بتحقيق عائشة السليمان ص 156، 167، 169، 170، 193، 195، 197، 198، 204، 219، 221، 224.

(10) المدارك 148/7، شجرة النور ص 101.

(11) ن : الوثائق والسجلات بتحقيق شاليثا وكورينطي ص 13، 45، 480، 575.

5 - ابن يونس : (ت 451 هـ)⁽¹²⁾.

أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي، الحافظ النظار، أخذ عن أبي الحسن الحصري القاضي، وعتيق بن عبد الحميد بن الفرضي، وأبي بكر بن عباس من علماء صقلية وغيرهم، وعن شيوخ القيروان، منهم أبو عمران الفاسي، وحدث عن أبي الحسن القابسي، من مؤلفاته كتاب الجامع المعروف بجامع ابن يونس في سبعة أجزاء ضمنه أقوال وآراء ابن حبيب في الفقه⁽¹³⁾.

6 - ابن عبد البر : (ت 463 هـ)⁽¹⁴⁾.

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، حافظ المغرب، شيخ علماء الأندلس وكبير محدثيها، سمع منه خلق كثير من أهل العلم، منهم أبو العباس الدلائي، وأبو محمد ابن أبي قحافة وأبو محمد بن حزم، وأبو عبد الله الحميدي، وأبو علي الغساني، وغيرهم، له مؤلفات كثيرة، انتقد ابن حبيب ولكنه نقل عنه وعن كتابه الواضحة كثيرا⁽¹⁵⁾.

7 - أبو الوليد الباجي : (ت 474 هـ)⁽¹⁶⁾.

سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث بن الوليد الباجي الأندلسي القرطبي، صاحب التصانيف الكثيرة، تأثر بابن حبيب كثيرا، حتى إن كتابه المنتقى جاء حاوياً لمجموعة من إختيارات واجتهادات ابن حبيب في الفقه⁽¹⁷⁾.

8 - القاضي المالقي : (ت 497 هـ)⁽¹⁸⁾.

أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي نسبة إلى

(12) مواهب الجليل 35/1، شجرة النور ص 111.

(13) ن مثلاً : الجزء الأول مخ ح رقم 3700 الصفحات : 221، 222، 223، 227، 228، 231، 232، 270، 286، 284.

(14) بغية الملتبس ص 474، جنوة المقتبس ص 344، شجرة النور ص 119.

(15) ن مثلاً : التمهيد 44/2، 180/4، 217/5، والكافي ص 100، 132، 263.

(16) فوات الوفيات 175/1، طبقات الحفاظ ص 39 - 440.

(17) ن : المنتقى بأجزائه السبعة فلا تخلو فيه صفحة من قول لابن حبيب.

(18) بغية الملتبس ص 78، فهرس ابن عطية ص 72، الصلة لابن بشكوال 329/1، المرقبة العليا ص 102.

مالقة، وهي جزيرة بالأندلس. أخذ عن الوزير ابن مغيث، وابن الكلبي، وابن عيسى الإلبيري، وأبي محمد قاسم الرعيني السبتي، وعنه أخذ القاضي أبو محمد عبد الله القيسي المالقي وأبو عبد الله محمد النفزي المالقي وغيرهما، من مؤلفاته كتاب الأحكام الذي اعتمد فيه آراء ابن حبيب وأقواله (19).

9 - ابن رشد الجد : (ت 520 هـ) (20).

القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، إليه المرجع في حل المشكلات، تفقه بآبَن رزق، والجواني، وابن أبي العافية الجوهري وجماعة، وعنه ابنه أحمد والقاضي عياض، وابن بشكوال، وأبو الوليد بن خيرة وغيرهم. من أهم مؤلفاته البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، و"المقدمات الممهدة". اعتمد في هذين الكتابين خصوصا على آراء ابن حبيب في الاستدلال، حتى إن ثلث آراء الفقهاء تقريبا في المسائل المطروحة هي لابن حبيب.

10 - ابن العربي : (ت 543 هـ) (21).

القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعافري، المعروف بابن العربي المالكي، أحد حفاظ الأندلس، أخذ عن والده عبد الله، وعن الأكفاني، وعن عبد الرحمن ابن قاسم الشعبي المالقي وعن أبي عبد الله محمد الكلاعي. من تلاميذه القاضي عياض، والسهيلي، ومحمد اللمتوني، وأبو القاسم ابن بشكوال وغيرهم، أخذ كثيرا عن ابن حبيب في مؤلفاته (22).

11 - القاضي عياض : (ت 544 هـ) (23).

هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض

(19) ن : الأحكام بتحقيق د. الصادق الحلوي ص 211، 227، 240، 260، 383، 385، 431، 450.

(20) بغية الملتمس ص 51 المرقبة العليا ص 111، شجرة النور ص 129.

(21) بغية الرائد ص 92-98، أزهار الرياض 62/3، شجرة النور ص 136.

(22) ن : القبس بتحقيق د. ولد كريم 223/1، 638/2.

(23) بغية الملتمس ص 437، الديباج 46/2، أزهار الرياض 23/1، شجرة النور ص 140.

ابن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي أخذ عن جلة كالقاضي عبد الله بن عيسى، وأبي الحسن شريح، وابن رشد الجد وغيرهم، وعنه جماعة منهم ابنه محمد وابن غازي، وابن زرقون، وابن مضاء، والقاضي أبو عبيد بن عطية. تأثر في منهجه الفقهي بابن حبيب، وتعد ترجمته له في المدارك من أوسع الترجمات، أثنى عليه كثيرا، وأورد آراءه في كتبه الفقهية واعتمدها (24).

12 - القاضي المتيطي : (ت 570 هـ) (25).

أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم الأنصاري يعرف بالمتيطي، ومتيطة قرية من أحواز الجزيرة الخضراء بالأندلس. ألف كتابا كبيرا في الوثائق سماه «النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام». اعتمده المفتون والحكام، واختصره أعلام، منهم ابن هارون، أخذ كثيرا في هذا الكتاب من آراء ابن حبيب في الوثائق (26).

13 - ابن شاس : (ت 610 هـ) (27).

أبو محمد عبد الله بن محمد بن شاس بن نزار الجذامي السعدي. أخذ عن أئمة وحدث عنه الحافظ زكي الدين المنذري، من مؤلفاته الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة على ترتيب الوجيز للغزالي اختصره ابن الحاجب، أخذ في كتابه هذا عن ابن حبيب كثيرا (28).

(24) ن مثلا : التنبيهات مخ خ ح رقم 534، 13/1، 18، 23، 29، 39، 42، 45، 61، 104، 122، 147، 175، 180، 191.

(25) نيل الابتهاج ص 314، شجرة النور ص 163.

(26) ن : اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام مخ خ ع رقم 3008 د الصفحات : 5، 8، 9، 13، 14، 16، 17، 47، 116.

(27) شجرة النور : ص 165.

(28) ن : الجواهر الثمينة مخ خ ح رقم 7984، 34/1، 36، 38، 60، 83، 84، 88، 101، 123، 128، 201، 284.

المرحلة الثانية : من بداية القرن الثامن إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

في هذه المرحلة من تاريخ الفقه المالكي، نشأ منهج جديد في هذا الفقه اصطلاح عليه أحد الباحثين المعاصرين "بمرحلة التفقه"⁽²⁹⁾.

وتعني هذه المرحلة الرجوع إلى الأقوال السابقة، بما في ذلك المتروكة، والمرجوحة، والمحكوم عليها بالضعف، للنظر فيها من الناحية النقدية، التي سبق من قديم أن نظر في أمثالها على ذلك المنهج الإمام اللخمي في التبصرة⁽³⁰⁾.

فكان لنشوء هذا المنهج أثر واضح في أن الراجح يبقى راجحا، والمفتى به مفتى به، ولكن لا مانع من النقد والتمحيص في الأقوال ومناقشتها على ضوء المعايير الفقهية المعمول بها في طرق الاجتهاد ؛ فظهرت تأثيرات فقهاء المذهب السابقين على فقهاء هذه المرحلة في مؤلفاتهم.

فهذا ابن جزى يجمع في القوانين الفقهية ما تيسر له أن يجمع ويناقش ويحلل من أقوال الفقهاء الذين سبقوه، وهذا خليل ابن إسحاق يضمن مختصره أقوال الفقهاء السابقين كذلك، حتى قيل إن مختصره اشتمل على مائة ألف مسألة بالمنطوق دون المفهوم⁽³¹⁾.

ومما يجب التنبيه عليه في هذه المرحلة انكباب الناس على الاهتمام بالمختصرات الأصولية والفقهية، كمختصر ابن الحاجب، ومختصر خليل، ومختصر ابن عرفة، وترجيحهم لمختصر على آخر كما فعلوا بمختصر خليل عندما بلغهم⁽³²⁾، وتركوا مختصر ابن الحاجب مع العلم أن مختصر خليل أقل حجما من مختصر ابن الحاجب.

(29) ألا وهو الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور في كتابه المحاضرات المغربية ص 85.

(30) مجلة الهداية ع 1991/1 ص 49.

(31) المصدر نفسه.

(32) اهتموا به وشرحوه شروحا عديدة من طرف فقهاء المغرب كالمواق، وابن مرزوق، وابن غازي وغيرهم، ومن طرف فقهاء مصر كبهرام، والحطاب، والأجهوري، وعبد الباقي الزرقاني وغيرهم كذلك.

ومن الفقهاء الذين تأثروا بفقہ ابن حبيب في هذه المرحلة وأوردوا في مؤلفاتهم نقولا عنه، واعتمدوا اختياراته ومؤلفاته في فقههم :

1 - ابن جزى : (ت 741 هـ) (33).

أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبي، أخذ عن ابن الزبير، ولزم ابن رشيد، وأبا المجد بن أبي الأحوط، والقاضي ابن برطال، وأبا القاسم بن الشاط و انتفع به .. وعنه أبناءه محمد وأبو بكر وأحمد وعبد الله ولسان الدين بن الخطيب، وإبراهيم الخزرجي وغيرهم، له مؤلفات كثيرة منها القوانين الفقهية، عزا فيه كثيرا من المسائل الفقهية إلى اختيارات ابن حبيب (34).

2 - خليل بن إسحاق : (ت 776 هـ) (35).

خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة، حامل لواء المذهب المالكي في زمانه بمصر، ألف مختصرا في الفقه، المعروف بمختصر خليل، وله شروح على المدونة، وله التوضيح في الفقه، سمع ابن عبد الهادي والشيخ المنوفي وغيرهما، وعنه أخذ بهرام بن عبد الله صاحب الشامل في الفقه وغيره (36).

3 - ابن فرحون : (ت 799 هـ) (37).

قاضي المدينة المنورة برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ أبي الحسن علي بن فرحون المدني، أخذ عن والده، والإمام

(33) نيل الابتهاج ص 398 - 399، شجرة النور ص 213.

(34) ن : مثلاً ما نقله عن ابن حبيب في القوانين الفقهية ص 125، 127، 151. من مؤلفات ابن جزى التي طبعت كتاب "تقريب الوصول إلى علم الأصول"، تحقيق محمد علي فركوس طبع سنة 1990 عن دار الأقصى بالجزائر.

(35) نيل الابتهاج ص 168 - 173، شجرة النور ص 223.

(36) ن : التوضيح مخ خ ع رقم 1249 ق الصفحات : 6، 8، 10، 23، 27، 31، 35، 43، 53، 77، 78، 93، 94، 100، 102، 106، 108، 115، 124، 125، 131، 143، 153، 155، 156، 157، 163، 174، 191، 192، 207، 228، 236، 238، 279، 304، 636، 659.

(37) شجرة النور ص 222.

ابن عرفة وجماعة، وعنه ابنه أبو اليمن وغيره، من مؤلفاته التي أخذ فيها من آراء ابن حبيب في الفقه تبصرة الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام⁽³⁸⁾.

4 - بهرام : (ت 805 هـ)⁽³⁹⁾.

بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عوص قاضي القضاة بمصر، أخذ عن الشيخ خليل، والشرف الرهوني، وإبراهيم القبيلي وغيرهم، وعنه أئمة منهم الأقفهي، وعبد الرحمن البكري وغيرهما، له تأليف مفيدة على مختصر خليل - وهو شيخه - اعتمد فيها كثيرا على أقوال ابن حبيب⁽⁴⁰⁾.

5 - العقباني : (ت 811 هـ)⁽⁴¹⁾.

أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني التجيبي العمدة المحقق، أخذ عن السطري، والأبلي وجماعة، وعنه إبراهيم المصمودي، وولده قاسم العقباني، وأبو يحيى الشريف، وابن مرزوق الحفيد وغيرهم، له تأليف عديدة منها تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر⁽⁴²⁾ أخذ فيه بأقوال ابن حبيب كثيرا.

6 - ابن عاصم : (ت 829 هـ)⁽⁴³⁾.

قاضي الجماعة أبو بكر محمد بن عاصم الغرناطي الفقيه الأصولي، كان من أكابر فقهاء غرناطة وعلمائها أخذ عن أبي الحسن بن سمعة، وأبي إسحاق الشاطبي، وأبي عبد الله الشريف التلمساني وغيرهم، وعنه ولده القاضي أبو يحيى وغيره. أخذ عن ابن حبيب وتأثر باختياراته الفقهية في كتابه المسمى بالتحفة التي

(38) ن : مثلا 21/1، 22، 41، 43، 55، 56، 59، 62، 112، 134، 143، 147 ...

(39) نيل الابتهاج ص 147 - 149، شجرة النور ص 239.

(40) ن : الشامل في الفقه مخ خ ع رقم 406 ق في مجلد ضخم ففيه كثير من النقول عن ابن حبيب.

(41) نيل الابتهاج ص 189 - 190، شجرة النور ص 250.

(42) ن : مخ خ ع رقم 451 ق الصفحات : 59، 239، 267 ...

(43) أزهار الرياض 145/1، شجرة النور ص 247.

وقع عليها القبول واعتمدها العلماء وشرحها جماعة، ومما أورد عن ابن حبيب في تحفته في باب الشفعة (44) قال :

وحيثما في ثمن الشقص * اختلف * فالقول قول المشتري بعد الحلف
إن كان ما ادعاه ليس يبعد * وقيل مطلقا ولا يعتمد
وابن حبيب قال بل يقوم * وباختيار للشفيع يحكم

7 - الونشريسي : (ت 914 هـ) (45).

أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم الفاسي، أخذ عن أبي الفضل العقباني وولده أبي سالم وحفيده محمد بن أحمد العقباني، وأبي عبد الله الجلاب، وابن مرزوق الكفيف وجماعة، وعنه ابنه عبد الواحد، وأبو زكرياء السوسي، ومحمد بن عبد الجبار وغيرهم. من مؤلفاته ذات القيمة الفقهية العالية في المذهب المالكي، كتاب المعيار، جمع فيه فتاوى المتقدمين والمتأخرين من فقهاء المذهب المالكي منهم ابن حبيب (46).

8 - الحطاب : (ت 954 هـ) (47)

محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المعروف بالحطاب، فقيه مالكي أصله من المغرب ولد واشتھر بمكة، ومات في طرابلس الغرب، أخذ الفقه وغيره عن والده الحطاب الكبير والعلامة أحمد ابن عبد الغفار، والعارف بالله محمد بن عراق، والشيخ عبد القادر

(44) التحفة ص 70، وانظر توضيح الأحكام للتوزري الزبيدي 20/1 وما بعدها والبهجة للتسولي 114/2 وما بعدها.

(45) نيل الابتهاج ص 135، شجرة النور ص 274.

(*) الشقص : القطعة من الأرض، والطائفة من الشيء، والشقيص، الشريك، يقال هو شقيصي أي شريكي في شقص من الأرض، الصحاح للجوهري 705/2.

(46) راجع المعيار بأجزائه المتكاملة حيث لا يخلو جزء من اختيارات وفتاوى لابن حبيب.

(47) نيل الابتهاج ص 592 شجرة النور ص 998، الأعلام للزركلي، 286/7، تاريخ التراث العربي 580/2.

النوري، والبرهان القلقشندي وغيرهم، وعنه الشيخ عبد الرحمن التاجوري، والشيخ محمد القيسي، وولده يحيى الخطاب وغيرهم، من مصنفاته مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، استند في شرحه لكثير من أقوال ابن حبيب⁽⁴⁸⁾.

9 - ابن عرضون : (ت 992 هـ)⁽⁴⁹⁾

أبو العباس أحمد بن الحسن بن يوسف بن عمر بن يحيى بن عمر المعروف بابن عرضون الزجلي، الفقيه المالكي، كان عالماً بالفقه والوثائق، وكان شاعراً خيراً حسن الشعر، أخذ عن المنجور، والجنوي، والبطيوي، والسراج، وعنه ولده محمد وغيره. ألف اللائق لمعلم الوثائق، ومقنع المحتاج وغيرهما، تأثر بابن حبيب كثيراً في مؤلفاته، وخاصة كتابه مقنع المحتاج حيث جعل كتاب الغاية والنهاية لابن حبيب مصدراً من مصادر الكتاب⁽⁵⁰⁾.

10 - عبد الباقي الزرقاني : (ت 1099 هـ)⁽⁵¹⁾

عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني، أبو محمد، كان مرجع المالكية أخذ عن النور الأجهوري، والنور الشبراملسي، والشمس البابلي، وعنه جماعة منهم ابنه محمد وأبو عبد الله محمد الصفار القيرواني، له مولفات منها شرح على المختصر الخليلي أخذ فيه بآراء ابن حبيب كثيراً⁽⁵²⁾.

11 - التسولي : (ت 1258 هـ)⁽⁵³⁾

القاضي أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو

(48) ن : مثلاً 46/1، 50، 52، 53، 108، 110، 111، 121، 143، 146، 448، 476،

(49) شجرة النور ص 286، الفكر السامي 104/4، الأعلام للزركلي 108/1.

(50) ن : مختصر مقنع المحتاج في آداب الأزواج وتربية الولدان لابن عرضون، رسالة مرقونة بكلية الشريعة بفاس من إعداد د. عبد السلام الزياتي تحت إشراف د. محمد بن معجوز الصفحات : 98، 186، 218، 220، 227، 236، 238، 242، 244، 246.

(51) شجرة النور ص 304.

(52) ن : شرحه على المختصر ففيه نقول عديدة عن ابن حبيب.

(53) شجرة النور ص 397.

مديش الفقيه النوازلي، الحامل لواء المذهب، أخذ عن الشيخ محمد ابن إبراهيم وهو عمده، والشيخ حمدون بن الحاج وغيرهما، له تأليف شاهدة بطول الباع وسعة الاطلاع منها شرحه على التحفة المسمى "البهجة في شرح التحفة" أخذ فيه بأقوال ابن حبيب في الفقه المالكي⁽⁵⁴⁾.

هذا ما اقتصرنا على ذكره فيما يخث تأثير ابن حبيب في رواد الحركة الفقهية المالكية، ومن الواضح أن ما ذكرته يكفينا دلالة على قوة تأثير ابن حبيب فيمن جاء بعده من العلماء الذين نقلوا من كتبه واستفادوا بأرائه واجتهاداته.

وقد علمنا مما سبق أن ابن حبيب هو من مؤسسي المدرسة المالكية في الأندلس، وريادته لهذه المدرسة جعلت منه عالما وهب حياته خدمة للعلم وأهله، مما جعل تلاميذه ومعاصريه ورواد المدرسة المالكية شرقا وغربا يتأثرون به وبمنهجه الفقهية وينقلون أقواله، فلا تجد كتابا واحدا من كتب المذهب المالكي لا يستدل بقول لابن حبيب.

المبحث الثالث : أثر مؤلفات ابن حبيب على حركة الفقه المالكي

تعد مؤلفات ابن حبيب وعلى رأسها الواضحة من أهم وأبرز المؤلفات الفقهية المالكية التي اعتمدها مالكية القرن الرابع الهجري والذين جاؤوا بعده.

فلا نكاد نجد فقيها من فقهاء المذهب المالكي انطلقا من ابن أبي زيد القيرواني إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري لا ينقل عن ابن حبيب ولا يستدل بفقهه، سواء تعلق الأمر بأرائه الفقهية المبنية في مظان كتب المذهب أو تعلق الأمر بالواضحة نفسها أو بما أثر عنه من أحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين.

ومن الذين تأثروا الى حد كبير بمؤلفات ابن حبيب نجد ابن أبي زيد القيرواني الذي جعل كتاب الواضحة مصدرا من مصادر كتابه النوادر والزيادات.

وكذلك جل فقهاء المذهب الذين اعتمدوا كتبه كالواضحة، وتفسير الموطأ، والغاية والنهاية وغيرها من مؤلفاته التي تلفت بفعل عوادي الزمن ولم نتمكن من الاطلاع عليها إلا ما استفدناه من ذكرها في كتب التراجم والتاريخ والطبقات.

ونظرا لقيمة مؤلفات ابن حبيب في تاريخ الفقه المالكي خاصة وفي تاريخ الغرب الإسلامي عامة، فقد حظيت بعناية واهتمام بالغين من طرف العلماء، حيث قاموا بروايتها، واختصارها، وشرحها، ونشرها في الأقطار الإسلامية الأخرى كمصر، والعراق، وبلاد الحجاز وغيرها.

يؤكد هذا ما أورده أبو الوليد بن الفرضي في ترجمة سلمة بن يوسف قال : «كان مجاب الدعوة عني بكتب عبد الملك بن حبيب ورواها عن المغامي»⁽⁵⁵⁾ وهذا عبد الله بن محمد بن حنين من أهل قرطبة اختصر واضحة ابن حبيب فأحسن فيها⁽⁵⁶⁾ وهذا سعيد بن فحلون انفرد برواية كتب عبد الملك بن حبيب الواضحة وغيرها⁽⁵⁷⁾، وهذا يوسف بن يحيى المغامي أدخل كتب عبد الملك بن حبيب إلى مصر وأسمعها الناس⁽⁵⁸⁾.

وهذا كذلك أبو العباس التونسي المعروف بالأبياني كان يدرس كتاب ابن حبيب⁽⁵⁹⁾.

ولقد أصبحت مؤلفات ابن حبيب منذ بداية القرن الرابع الهجري إلى وقت متأخر مصدرا ومرجعا لفقهاء المذهب المالكي اعتمدوها وأخذوا بها في مؤلفاتهم.

فهذا الإمام الخطاب - رحمه الله - ينقل في مواهب الجليل عن فضل بن سلمة مختصر الواضحة فيقول : «قال فضل بن

(55) تاريخ ابن الفرضي 224/1.

(56) المصدر السابق 200/1، المدرك 223/5، الديباج 392/2.

(57) أخبار الفقهاء والمحدثين ص 228.

(58) الديباج 365/2.

(59) المدرك 12/6، والمقصود بكتاب ابن حبيب هو "الواضحة".

سلمة في اختصار الواضحة لابن حبيب : ويستحب لمن حج أن يستكثر من ماء زمزم تبركا ببركته يكون منه شربه ووضوؤه واغتساله ما أقام بمكة ويكثر من الدعاء عند شربه» (60).

هكذا إذن، بقيت آثار مصنفات ابن حبيب واضحة في كتب الفقه المالكي القديمة منها والحديثة، رغم اندثار وانقراض أغلبها. فقد كانت محل اعتماد من طرف فقهاء المذهب حتى إن تأثيرها لم ينحصر في فقهاء الأندلس فقط، وإنما تعدى ذلك التأثير إلى فقهاء المغرب الأقصى، وتونس، ومصر، والحجاز، والعراق، وأضحت مصدر اهتمام العلماء واستنادهم إليها، والعمل بترجيحات صاحبها في الفقه.

المجال التطبيقي في فقه ابن حبيب

أقصد بالمجال التطبيقي في فقه ابن حبيب تلك الآراء الفقهية المبنوثة في كتب الفقه المالكي على اختلاف أنواعها ؛ فهي في حاجة إلى من يجمعها ويرتبها ويقيم دراسة على أساسها.

ولقد قمت بجمع بعض آرائه واختياراته الفقهية، ورتبتها حسب المنهجية التي تراءت لي مبتدئاً في مبحث أول بكتابه "الواضحة" التي تشكل المجال الأكثر تطبيقاً لفقهه، ولأنها من الأمهات الأولى في الفقه المالكي، اعتمدها جل الفقهاء الذين جاؤوا بعد ابن حبيب ونقلوا منها وتداولوها فيما بينهم، وفي مبحث ثان سأعطي نماذج من اختيارات ابن حبيب الفقهية.

المبحث الأول : الواضحة

عندما يذكر ابن حبيب تذكر معه "الواضحة" لا لكونها كتاباً من جملة مؤلفاته فقط، بل لكونها كتاباً له وزنه وقيمته الفقهية داخل المذهب المالكي ؛ فالواضحة تشكل إطاراً تطبيقياً لفقه ابن حبيب لأنه جمع فيها اجتهاداته وآراءه الفقهية ممنهجة ومنسقة بطريقة علمية هادفة.

وجزاء "الواضحة" الذي بين أيدينا الآن يرشدنا إلى أن ابن حبيب هو من أولئك العلماء الذين يستنبطون ويركزون ويضعون الكلام في مكانه المناسب.

فقسم الضوء من "الواضحة" الذي اطلعت عليه بخزانة القرويين يبتدئه برغائب الضوء ويختمه بما جاء في الاستنجااء بغير الماء، ويهدف في ذلك كله إلى وحدة موضوعية شاملة.

وسأتحدث فيما يلي عن القيمة الفقهية للواضحة، ثم محتواها ومصادرها، ثم اندثارها، ثم روايتها واختصارها.

القيمة الفقهية للواضحة

الواضحة في الأندلس تعتبر كالمدونة بالنسبة للمدرسة الفقهية القيروانية، وكمختصر ابن عبد الحكم بالنسبة للمدرسة الفقهية المصرية، فهي أصل الفقه المالكي بالأندلس كما كانت المدونة أصل الفقه المالكي بالقيروان⁽⁶¹⁾.

وإن تألق ابن حبيب وبراعته في الفقه المالكي ظهر أساسا في كتابه الواضحة، التي تعتبر من أمهات الفقه المالكي إلى جانب المدونة والموازية والعتبية والمجموعة، ولم أعلم كتابا في الفقه المالكي حظي بمثل ما حظيت به الواضحة من العناية والاهتمام من طرف العلماء، عولوا عليها ونقلوا منها ودرسوها ونشروها في الأقطار.

وإذا كان أثر ثرات ابن حبيب العلمي قد ضاع، ولم يسلم منه إلا جزء قليل لا يزال معطلا ومحتفظا به في خزائن المخطوطات شرقا وغربا ؛ فإن الواضحة كان لها نصيبها من الضياع، حيث ضاع الجزء الأكبر منها، ولم يصلنا منها إلا قطعة صغيرة توجد مخطوطة ومرقونة في خزانة القرويين بمدينة فاس تحت رقم 809⁽⁶²⁾. (خاص بقسم الضوء).

(61) ابن أبي زيد حياته، آثاره ص 421.

(62) ذكر كوركيس عواد في كتابه " أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم " ص 238 : أن كتاب الواضحة توجد نسخة منه في دار الكتب الوطنية بترنس رقم 712 مكتوب على الرق، واستفسرت ذوي الاختصاص عن هذه النسخة فذكروا لي أنها عبارة عن أوراق متلاشية، وأشار ==

ولقد كان لكتاب الواضحة قيمة فقهية عظيمة، إذ انتفع به طلاب العلم جيلا بعد جيل، وانتشر في الآفاق، وكان له دور مهم في خدمة فقه المذهب، حيث تكاد تجمع جل كتب التراجم والفقه والتاريخ على هذه القيمة، ويزكي ما أقول شهادة كثير من فقهاء المذهب وغيرهم بالقيمة الفقهية للواضحة، وسأعرض هنا شهادة بعضهم :

1 - قال عنها القاضي عياض : «ألف ابن حبيب كتبا كثيرة حسانا في الفقه والتواريخ والأدب، منها الكتب المسماة بالواضحة في السنن والفقه لم يؤلف مثلها» (63).

2 - وقال عنها الحميدي * : «وله في الفقه الكتاب الكبير المسمى بالواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه» (64).

3 - وقال عنها المقرئ : «الواضحة في مذهب مالك كتاب كبير مفيد» (65).

4 - وقال عنها ابن حزم -رغم تحامله الشديد على ابن حبيب- : «ومنها في الفقه الواضحة والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها» (66).

5 - وقال عنها العتبي : «ومنها الكتب المسماة بالواضحة في السنن والفقه لم ير مثلها» (67).

لذا، فإن كتاب الواضحة أكسب ابن حبيب شهرة في الأندلس والمشرق، وكان لهذا الكتاب فضل كبير في انتشار الحركة العلمية المالكية في الغرب الإسلامي خصوصا إذ تهافت عليها تلاميذه

== صاحب "دراسة في مصادر الفقه المالكي" إلى أن قطعة القيروان من الجزء الرابع من كتاب الحج في كتاب واضح السنن، تبلغ في مجملها سبع ورقات فقط، انظر ص 47 وما بعدها في وصف هذه القطعة.

(63) المدارك 127/4.

(64) جنوة المقتبس ص 283. * هذا غير الحميدي شيخ البخاري.

(65) نفح الطيب 71/3.

(66) رسائل ابن حزم 181/2.

(67) طبقات المفسرين 349/1.

بالرواية والاختصار، وعرفوا بها وبصاحبها، فرووها عنه إما إجازة وإما سماعاً، وشهدوا لها بالفضل وأثنوا عليها الثناء الجميل، فاعتمدها الذين جاؤوا بعده واعتبروها مصدراً من مصادر مؤلفاتهم في المذهب المالكي. ومن هؤلاء ابن أبي زيد القيرواني جعلها مصدراً في كتابه النوادر والزيادات، وفي كتابه الجامع، وأبو الوليد الباجي في المنتقى، وابن رشد الجد في البيان والتحصيل، والقاضي عياض في التنبيهات، والقرافي في الذخيرة، وابن عبد الرفيق في معين الحكام، وغيرهم كثير من مؤلفي المذهب المالكي.

محتوى الواضحة ومصادرها.

1 - يحتوي جزء الواضحة - الخاص بالوضوء - والموجود بخزانة القرويين بمدينة فاس على ما يلي :

- رغائب الوضوء.
- سنن الوضوء.
- ما يستحب من القصد من الوضوء وما يكره من الغلو فيه والسرف.

- العمل في النسيان في الوضوء.
- ما يجوز الوضوء به من الماء وما لا يجوز.
- ما يستحب من السواك عند الوضوء.
- وضوء الجنب إذا أراد النوم وما يجوز للجنب فعله قبل الطهر.

- وضوء من مس القرآن.

- ما يستحب من العمل في التغوط والبول.

- ما جاء في الاستنجاء بغير الماء.

هذه هي العناوين التي يحتوي عليها جزء الواضحة من مخطوطة القرويين ؛ فكلها عناوين تتعلق بالوضوء، مما يفيد أن الجزء الأكبر الخاص ببقية العبادات والمعاملات قد ضاع ولا وجود له.

وهذا الجزء هو منتسخ من كتاب الواضحة الكبير، وهو عبارة عن رواية السماع لأنه لا مقدمة له تعرفنا بمضمونه على عادة الأقدمين الذين كانوا قبل أن يكتبوا، لابد أن يقدموا لذلك بمقدمة. كما أنه لا خاتمة له، كل ما هنالك، كتب في آخر المخطوط : كمل الجزء الأول بحمد الله وعونه وصلى الله على محمد وسلم يتلوه في الثاني وضوء الذي يستنكحه المذي أو البول إن شاء الله تعالى.

وكتب تحت هذا : وسمعت جميعه على الفقيه الجليل المشاور ابن محمد عبد الرحمن بن عتاب أدام الله بركته (...). وابن عتاب هذا توفي سنة 520 هـ⁽⁶⁸⁾ وفي الحاشية كتب : الحمد لله ولد عبد الرحمن بن مولى عبد الجلال ليلة الأحد السادس من ربيع الثاني عام (سبع أو تسع) وثمانمائة عرفنا الله (...). وبركة بمنه وكرمه جعله الله من عباده الصالحين ومن العلماء العاملين آمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين وصحبه وسلم تسليما.

2 - أما مصادر الواضحة، فالبرغم كما قلت من أنه لا مقدمة لهذا الجزء، فإن ابن حبيب كذلك لم يصرح في تأليفه للواضحة بالكتب التي اعتمدها، إلا أننا نكاد نستشف ضمنا مصادر الكتاب من خلال اطلاعنا على قطعة القرويين، ذلك أن ابن حبيب استقى معلوماته من فقهاء المذهب المالكي الكبار المصريين، والحجازيين، والأندلسيين، يظهر ذلك في كثرة استدلاله بآراء هؤلاء الفقهاء، كما لا ننسى التأثير الواضح لهؤلاء على حياة ابن حبيب، فجل فقهه قد أخذه عن هؤلاء سواء في الأندلس أو في رحلته إلى المشرق.

ويظهر هذا التأثير واضحا في قطعة الواضحة بخزانة القرويين، وفي بقية كتبه الأخرى (كالورع، والغاية والنهاية، ووصف الفردوس، ومعرفة النجوم).

(68) هو عبد الرحمن بن محمد بن عتاب القرطبي المالكي، كان فقيها ومحدثا ومشاورا، ن : الصلة لابن بشكوال 332/1.

فكثيرا ما يورد ابن حبيب في الواضحة : وحدثني مطرف ..
وحدثني أسد بن موسى، وحدثني عبد الملك بن الماجشون .. وحدثني
الأويسى .. وحدثني ابن عبد الحكم.

ثم يورد استدلالا آخر في صيغة أخرى : وسمعت مطرف،
وقال لي مطرف، وسمعت ابن الماجشون، وقال لي ابن الماجشون،
وسألت صعصعة، وقال لي صعصعة إلى غير ذلك.

ومن خلال قطعة الواضحة يظهر التأثر الكبير لابن حبيب
بمنهجية الإمام مالك في الموطأ حيث يوازي الواضحة بالموطأ من
خلال عمله بالبلاغات، فكثيرا ما يقول : وبلغني عن ابن مسعود،
ومن خلال السؤالات، وسألت ابن الماجشون، وكثيرا كذلك ما يستدل
بأقوال فقهاء المدينة مما يفيد أنه كان متأثرا بعمل أهل المدينة وهو
مصدر من مصادر الفقه المالكي وذلك مثل قوله في ص 21 :
وحدثني عبد العزيز الأويسى ابن محمد بن الحسن المدنيان عن
يزيد بن عبد الملك النوفلي عن المقبري عن أبي هريرة.

ويظهر في قطعة الواضحة آراء ابن حبيب الفقهية، إذ يبدي
رأيه في كثير من القضايا منها مثلا : «قال عبد الملك : وتخليل
اللحية عند الوضوء رغبة وليس بواجب وإنما اللحية من الوجه فإنما
عليك أن تمر بيديك بالماء على لحيتك كما تمرهما على وجهك وإن
كثر شعر اللحية حركتها وذلك عند الوضوء فأما في الغسل من
الجنابة فعليك أن تخلل على كل حال وهكذا كان مالك يقول» (69).

ويطالعنا ابن حبيب في الواضحة بإثارة بعض القضايا الهامة
التي لها ارتباط بطهارة الإنسان كقوله : «والامتخاط بالشمال أحب
إلي لأنه من الأذى» (70).

ويغلب على قطعة الواضحة استدلال ابن حبيب بالأحاديث
النبوية كقوله فيما يستحب من السواك عند الوضوء : إنه حسن

(69) الواضحة ص 7.

(70) نفسه ص 13.

مستحب مرغوب فيه كان رسول الله ﷺ يستحبه ويرغب فيه ويقول : «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء» (71) حدثني بذلك ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ (72).

كما يستدل بأقوال مالك، كقوله، قال مالك : ولا بأس أن يجلس في المسجد من ليس على وضوء (73).

كما يستدل كذلك بأقوال الصحابة والتابعين، كقوله : وبلغني عن ابن مسعود قال : إن من السرف أن يمر الرجل بنهر عجاج فيتوضأ فيكثر صب الماء (74)، وكقوله : وبلغني أن مسلم بن يسار الجهني وكان من خيار التابعين كان يقول لا أمس ذكرني بيمينني وأنا أرجو أن أخذ بها كتابي (75).

ونخلص مما سبق أن مصادر الواضحة التي اعتمدها ابن حبيب هي : الكتاب، والسنة، وأقوال مالك، وأقوال الصحابة والتابعين، وأقوال شيوخه.

اندثار الواضحة

تضاربت الآراء واختلفت حول واضحة ابن حبيب، ونجد أنفسنا في حيرة واضطراب أمام تضارب الآراء حول هذا الكتاب الذي يعد مصدرا من مصادر فقهاء المالكي ؛ فهناك من يرى أن كتاب الواضحة قد أحرق من جملة كتب المذهب المالكي التي أحرقت في عهد الدولة الموحدية، وهناك من يرى أن كتاب الواضحة لم يحرق، وأنه بقي يدرس إلى حدود القرن التاسع الهجري، وسنحاول الكشف عن هذه الآراء انطلاقا مما يلي :

(71) أخرجه مالك في الموطأ عن أبي هريرة 54/1 رقم 118، وأبو داود الطيالسي في مسنده 306/9 بلفظ قريب من هذا : «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالوضوء عند كل صلاة ومع كل وضوء سواك ولأخرت العشاء إلى نصف الليل». والبخاري في «كتاب الصوم» باب السواك الرطب واليابس للصائم 595/2 عن أبي هريرة.

(72) الواضحة ص 17.

(73) نفسه ص 18.

(74) نفسه ص 14.

(75) نفسه ص 13.

1 - يرى المؤرخ المغربي عبد الواحد المراكشي في كتابه "المعجب"، أنه في عهد أبي يوسف يعقوب⁽⁷⁶⁾ انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ .. فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحوها. وكان قصده من هذا محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا⁽⁷⁷⁾.

عندما نتأمل كلام صاحب المعجب يخامرنا الشك حول مصير هذه الكتب، فجميع أمهات الفقه المالكي التي ذكرها وقال بأنها قد أحرقت ما زالت معتمدة كمصدر من مصادر الفقه المالكي إلى يومنا هذا، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط، إلا الجزء الكبير من الواضحة فلا وجود له حسب ما أعلم. ونتساءل إذن كيف اندثر هذا الجزء؟ وهل كانت نسخة واحدة وأحرقت؟ هذا غير مسلم به، وإذا كانت هذه هي النسخة الواحدة وأحرقت من طرف الموحدين، فكيف حافظت خزانة القرويين على الجزء الخاص بالوضوء؟.

2 - أرى والله أعلم أن كتاب الواضحة اندثر بسبب عوادي الزمن وبسبب تهافت الصليبيين على الكتب الإسلامية وسرقتها والاستحواذ عليها في الأندلس السلبيية إبان سقوطها، وهي ما زالت موجودة عند الخواص، ولعل البحث في مستقبل الأيام في عالم المخطوطات يكشف لنا عن ذلك.

ومن القرائن التي تفيدنا أن كتاب الواضحة لم يحرق وبقي

(76) هو أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المومن الموحدي المتوفى سنة 595 هـ.

(77) المعجب ص 354 وما بعدها، وانظر وفيات الأعيان 11/7 «... وأمر برفض فروع الفقه وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين».

يدرس إلى حدود القرن التاسع الهجري، ما أفادنا به محقق مقدمة ابن خلدون الدكتور علي عبد الواحد وافي : أن ابن خلدون درس واضحة ابن حبيب، والعتبية للعتبي، والأسدية لأسد بن الفرات، ومؤلفات ابن يونس، وابن محرز التونسي وابن بشير، وابن رشد، وكتاب النوادر لابن أبي زيد، هذا زيادة على مختصر ابن الحاجب وما عليه من شروح وكتاب التهذيب للبرادعي، وكتاب المدونة⁽⁷⁸⁾.

كما أن القرافي جعل الواضحة مصدرا كتابه "الذخيرة" ونقل منها كثيرا⁽⁷⁹⁾ هو وغيره من فقهاء المذهب في القرن السابع والثامن والتاسع الهجري.

اختصار الواضحة وروايتها

كان كتاب الواضحة خير شاهد على تألق ابن حبيب في الفقه المالكي، فقد لقي من الاهتمام والعناية ما لم يلقه كتاب غيره من كتب المذهب المالكي، فقد عكف عليه العلماء بالرواية والاختصار.

ويعتبر عصر ابن حبيب بداية لظهور المختصرات الفقهية كمختصر ابن عبد الحكم المصري (المتوفى سنة 214 هـ) الذي شرحه أبو بكر الأبهري، ويقال إنه نحا فيه اختصار كتب أشهب⁽⁸⁰⁾.

ثم بعد ابن عبد الحكم اختصر ابن أبي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر، ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب⁽⁸¹⁾.

وتوالى المختصرات في المذهب المالكي حتى عصر خليل وابن عرفة.

ويرجع السبب في ظهور هذه المختصرات وركوب الناس هذا المهيع إلى أن المتأخرين صعب عليهم استيعاب المؤلفات المطولة،

(78) ن : المقدمة 142/1 "رسوخ قدم ابن خلدون في الفقه المالكي".

(79) ن : 18/1.

(80) ن : المدارك 365/3.

(81) المقدمة ص 450.

وشق عليهم حفظها واستقصاؤها، فاستعاضوا عنها كتباً مختصرة تيسيراً على المبتدئين وتسهيلاً للحفظ على المتعلمين، ولا يخفى أن المؤلفات التي صنفت في عهد مبكر، كانت كبيرة الحجم، سهلة العبارة واضحة الأفكار مثل المدونة لسحنون المتوفى سنة 240 هـ، والموازاة لابن المواز المتوفى سنة 269 هـ، والواضحة لعبد الملك بن حبيب المتوفى سنة 238 هـ، والمبسوطة للقاضي إسماعيل المتوفى سنة 282 هـ، والحاوي لأبي الفرج الليثي المتوفى سنة 331 هـ، والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة 386 هـ (82).

وسنرى فيما يلي أهم الذين اختصروا ورووا الواضحة نظراً لقيمتها وأهميتها في المذهب المالكي ومن هؤلاء :

1 - يوسف بن يحيى المغامي (ت 288 هـ) :

أحد تلامذة ابن حبيب، ارتحل إلى مصر، وبين فيها الواضحة، روى عن ابن حبيب جميع مصنفاته، وعن المغامي أخذ عبد الأعلى ابن معلى المتوفى سنة 293 هـ كتب ابن حبيب، وسلمة بن يوسف من الموالي (83).

2 - عبيد الله (ولد ابن حبيب) (ت 291 هـ) :

كان فاضلاً مشهوراً بالزهد والورع والتقوى، روى كتب والده، قال عنه موراني : فقطعة القيروان من الجزء الرابع من كتاب الحج في كتاب واضح السنن (8 ورقات) سلمها عبيد الله بدوره إلى زميله سعيد بن شعبان بن قرة الخولاني (295 هـ) وقد قرئت على أبي عبد الله محمد بن مسرور عام 341 هـ (84).

3 - محمد بن سعيد بن حكم : (ت 304 هـ).

أصله من قرطبة سمع كتب عبد الملك بن حبيب من أبيه سعيد بن حكم (85).

(82) مباحث في المذهب المالكي ص 88 وما بعدها.

(83) أخبار الفقهاء والمحدثين ص 264، تاريخ ابن الفرضي 224/1، الديباج 365/2، نفح الطيب 520/2.

(84) ن : دراسات في مصادر الفقه المالكي ص 47.

(85) أخبار الفقهاء والمحدثين ص 228.

4 - عبد الله بن محمد بن حنين (ت 318 هـ) :

من أهل قرطبة، اختصر واضحة عبد الملك بن حبيب فأحسن فيها (86).

5 - فضل بن سلمة (ت 319 هـ) :

أول من اختصر كتب أمهات المذهب، المدونة والواضحة والموازية والمستخرجة. وتلقب على ابن حبيب كثيرا من قوله، وعن فضل بن سلمة أخذ ابن الفخار (87).

6 - سعيد بن فحلون (ت 346 هـ) :

انفرد برواية كتب ابن حبيب الواضحة وغيرها (88) وعن سعيد بن فحلون هذا روى الحسين بن يعقوب البجاني كتاب (*) عبد الملك بن حبيب السلمي (89).

7 - إسحاق التونسي المعروف بالأبياني (ت 352 هـ) :

أدخل كتب ابن حبيب إلى تونس، وكان يدرس كتاب ابن حبيب (90).

8 - ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ) :

فقيه مالكي معروف، اعتنى بمؤلفات ابن حبيب وجعلها مصدرا في كتبه، قال في كتاب الجامع : «وما كان فيه من كتب ابن حبيب فحدثني به عبد الله بن مسرور عن يوسف بن يحيى المغامي عن ابن حبيب (91)».

9 - البرادعي : (ت 430 هـ) :

من حفاظ المذهب ومن كبار أصحاب ابن أبي زيد والقابسي،

(86) المصدر السابق ص 179.

(87) ن : المدارك 221/5، شجرة النور ص 82، نزهة الأنظار للورثياني ص 333.

(88) ن : المدارك 224/5، تاريخ ابن الغرضي 200/1، الديباج 392/2.

(*) المقصود بالكتاب "الواضحة".

(89) ن : جنوة المقتبس ص 302.

(90) ن : المدارك 10/6.

(91) الجامع تح د. عبد المجيد تركي ص 324.

له تأليف مشهورة منها : اختصار المدونة، والتهذيب، والتمهيد
لمسائل المدونة، والشرح والتمامات لمسائل المدونة، اختصار
الواضحة⁽⁹²⁾.

10 - ابن رشد (ت 520 هـ) :

روى الواضحة عن شيخه أبي العباس العذري المتوفى سنة
478 هـ بسنده إلى مؤلفها⁽⁹³⁾.

11 - ابن عطية (ت 542 هـ) :

الواضحة لعبد الملك بن حبيب، أخبرني بها عن أبي محمد بن
أبي طالب عن أبي محمد بن أبي زيد، عن عبد الله بن مسرور عن
يوسف بن يحيى المغامي⁽⁹⁴⁾.

هؤلاء هم الذين اهتموا بمؤلفات ابن حبيب رواية واختصارا
وخصوصا الواضحة التي شغلت حيزا هاما من مؤلفات ابن حبيب
فأقبل عليها تلاميذه ورووها للناس ونسخوها لطلبتهم وحثوهم على
حفظها ونشرها حتى انتشرت عند فقهاء المذهب فعولوا على الأخذ
منها. وقل أن تجد فقيها من فقهاء المالكية بعد وفاة ابن حبيب لا
يأخذ من الواضحة ولا يشير إليها.

(92) المدارك 257/7، شجرة النور ص 105.

(93) فتاوى ابن رشد 47/1 (هامش 1).

(94) فهرس ابن عطية ص 92.

خاتمة :

لقد عمل ابن حبيب على ترسيخ دعائم المدرسة المالكية بالأندلس، ونظرة في كتب الفقه المالكي القديمة منها والحديثة، كافية أن تطلعنا على مدى تأثيره في رواد الفقه المالكي المتقدمين منهم والمتأخرين بأرائه واجتهاداته ومؤلفاته.

لقد كان الرجل يتميز بمنهج فقهى دقيق مع قدرة على مواكبة قضايا عصره فضلا عن اتساع أفقه العلمي وتنوع ثقافته وقدرته الخارقة على تفريع الأحكام من أصولها وفق أصول المذهب المالكي، وكتابه الواضحة في السنن والفقه خير شاهد على كثرة التفريعات التي سبق بها غيره من علماء المذهب المتقدمين حيث اهتم بها من جاء بعده وكان لها تأثير كبير في تأصيل المدرسة الفقهية المالكية في الغرب الإسلامي.

